نحو مسرح إسلامي معاصر (٢)

معجزة في الضفة الغربية

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
معجزة في الضفة الغربية
أكاديميون
صرخة عند المسجد الاقصى
شيء عن الموت

معجزة في الضفة الغربية

المشهد الاول

القدس في ربيع عام ١٩٧٦[١] (غرفة جلوس في دار اعتيادية تفتح نافذتها الواسعة على الطريق العام الذي لا يرى سوى جانب محدود منه ... هناك في زاوية الغرفة ، الى الجهة اليسرى ، منضدة رصت عليها الكتب بدون عناية . تنتشر في اطراف الغرفة مقاعد غير منسقة .. نلمح الأب وهو يجلس الى جانب المنضدة يطالع في كتاب ، تبدو عليه ملامح المرض والارهاق .. يلتفت بين الحين والاخر الى ابنه (سمير) الذي لم يتجاوز السنوات التسع وهو منبطح ارضا يعيد لعبة (الميكانو) دون ان يصل الى نتيجة .. في الجهة الاخرى نلمح الأم وهي تعكف عليها نسج قطعة بين يديها ...)

الأب **(يقفل الكتاب هنيهة) لقد صدر قرارهم اذن ؟**

الأم **(ترفع راسها ثم ما تلبث ان تعود الى عملها دون ان تجيب) .**

الأب **اقول لقد صدر قرارهم ، وها هم بعد ايام ثلاثة فحسب يبدأون التنفيذ اللئيم ..**

الأم **هذا امر متوقع ، فما داموا قد احتلوا الارض فان لهم ان يفعلوا فيها ما يشاءون ..**

الأب **(بعصبية) ولكن اجراءهم الاخير لن يمضي دون عقاب ..**

الأم **اعتقد انك قد اديت دورك بما فيه الكفاية .. ولك الان ان ترتاح .. إن لديك صبيين عليك ان تنصرف للعناية بهما ..**

الأب **(ينظر عبر النافذة) كان ذلك منذ زمان بعيد.. كنت املك القدرة على حمل السلاح .. والضرب .. لقد صنعت واخواني في سني الجولة الاولى ما عجزت الجيوش الرسمية عن فعله .. ان القدس العربية نفسها مدينة بصمودها لجهادنا المرير ، فضلا عن عدد اخر من المدن والمواقع .. لم يكن بمقدور الحكام الذين سيروا الجيوش ان يحموا شبرا واحدا من الارض .. لقد كانوا دمى تحركها اصابع الكبار.**

---

(١) هذه المسرحية مستوحاة من وقائع شهدتها الضفة الغربية ذلك العام.

الأم ليس هذا أَوان النقد والتحسر .. ان امامنا كارثة جديدة يتوجب التفكير فيها .. انها تصنع امام أعيننا ..

الأب آه لو استرد بعضا من قدرتي على الحركة .. فقط من اجل ان اشترك معهم في مسيرة الغضب دفاعا عن حرمات الله .. ان الحزن ياكلني من الداخل يا ام سامر دون ان استطيع فعل اي شيء .. اتعرفين ؟

الأم (ترفع وجهها اليه ثم تعود الى عملها دون ان تجيبه بشيء)

الأب كنت اتلقى صوت الرصاص كما اتلقى ايقاعا موسيقيا منغما .. كما اتلقى لحنا مؤثرا .. كان يوحدني حقا ويمنحني قدرة اكبر على الهجوم والاقتحام .. انها النشوة الكبيرة التي يعرفها جيدا المتعبدون والفنانون والمقاتلون !! ماذا لو طرقت سمعي اليوم اصوات الرصاص مرة اخرى ؟ ماذا لو دهمتني النشوة الكبيرة تلك وانا اعاني هنا سجن المرض وعجز القعود ؟ !

الأم (وهي تنتزع ابتسامة مقتضبة) حسنا .. ساضطر اذن الى اقفال النافذة جيدا خوفا من ان تدفعك النشوة الى ان ترمي بنفسك منها على جموع المتظاهرين.. انا متأَكدة من ان الرصاص سيعزف عما قريب !!

الأب (بنفس النظرة البعيدة) النافذة ؟ آه .. لقد ذكرتني يا أم سامر .. كنت وثلاثة من اخواني مكلفين باقتحام تحصينات احد المواقع اليهودية وتدميرها .. رفعت راسي فجاة الى احدى النوافذ .. كان احد الحراس اليهود يقبل رفيقته في السلاح.. ترددت قليلا بين ان اغمض بصري حتى ينتهي العناق المثير ، وبين ان اضرب بسرعة حتى لو دفعني ذلك الى اقتراف اثم المعاينة والتحديق المركز (يضحك) .

الأم واخترت الثانية .. طبعا ..

الأب لم يكن ثمة خيار .. ثم انني انزلت بهما القصاص العادل الذي يتوجب عليهما مرتين !!

الأم كيف ؟

الأب لقد رجمتهما بالرصاص (ما يلبث تنهد عميق ان يكتسح ضحكته) اما الان فما الذي استطيعه. ان داء السكر اللعين ينهش في كياني .. ليس لي الا ان اجلس ها هنا واطلق الحسرات .. حقا لم يعد امامي سوى ان انصرف للعناية بالصبيين .. اين ذهب سامر ؟

الأم لقد نزل بعربته الخاصة الى خارج الدار لكي يتجول قليلا .. مسكين .. لقد سئم الجلوس في الدار ..

الأب منذ ان اصيب بالكساح ولما يتجاوز السنتين من عمره وانا اقول لولاي لما عرف العذاب وها انذا اتعذب مرتين كل يوم .. لقد نلت جزائي ..

الأم انها ارادة الله يا أبا سامر .. وانك لم تألُ جهدا في محاولة انقاذه .. فلا داعي لان تتالم.

الأب صبي لا يقدر على الوقوف ، يقضي سني عمره الطويل قاعدا .. اننا وقد وهبنا الله القدرة على الحركة تكتسحنا لحظات نكاد نختنق فيها ساما .. فكيف .. بهذا المسكين ؟

الأم ومع ذلك فانني المح في عينيه اصرارا .. انه متفوق في دروسه ، ومن يدري فلعله في حياته المقبلة يكون اكثر توفيقا ..

(تسمع عن بعد اصوات مختلطة مبهمة ، تزداد وضوحا بمرور الوقت ..).

الأب ها هم الان قادمون .. اتسمعين ؟

الأم لقد بدأوا اذن وفي الموعد المحدد تماما كما اسر الي ابو العوف .. لقد بداوا اذن ..

الأم بدأوا ماذا ؟

الأب (غير ملتفت لسؤالها) ان يصلي اولاد الافاعي في المسجد الاقصى فذلك ما لا يمكن ان يمضي بسلام .. لقد احرقوا جانبا منه قبل سبع سنين .. اليس كذلك ؟ ولكن النار قد تطهر احيانا .. اما هذا الدنس (بغيظ مكتوم) فلن يصل المسجد هذه المرة ..

(الاصوات تتعالى .. تقطعها بين الحين والآخر زخات من الرصاص) .

الأم اتسمع هذا الصراخ يا أبا سامر ؟

الأب وكيف ؟ انني اكاد اصرخ معهم !!

الأم أتراه مذبحة جديدة ؟

الأب انها التظاهرة الكبرى التي حددوا لانطلاقها الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم .. وها هم اولاء يفون بوعدهم .. ان المدينة كلها تخرج لكي تصرخ بوجه بني اسرائيل ..

الأم (تضع النسيج جانبا وتنهض)

الأب الى اين ؟

الأم سأتي بسامر قبل ان يصلوا.

الأب دعيه فليبق هناك .. ليشارك ابناء بلده بعينيه على الاقل .. لا اريد لأبنائي ان ينعزلوا عن ابناء شعبهم ويقفوا خارج الاطار .. هذا يوم يتوجب فيه حتى على المرضى والمقعدين ان يخرجوا لكي يضموا صوتهم الى اصوات اخوانهم ، ولو حملوا على الاكتاف ..

الأم ان ابنك سريع الانفعال .. وانني اخاف ان يضطرب به الأمر فيصيبه مكروه ..

الأب لقد اصابنا جميعا ، المكروه الكبير ، انهم يريدون ان يمارسوا طقوسهم في المسجد الاقصى فاي مكروه اكبر من هذا ؟.

(يترك سمير لعبه ويقفز إلى النافذة مصيخا إلى الاصوات التي ازدادت قوة واصبحت كهزيم الرعد).

الأم (تناديه) لا تطل براسك اكثر مما يجب يا سمير لئلا تصيبك رصاصة طائشة .. انهم يقتربون ولا اظن ان الاسرائيليين سيكتفون بالتفرج عليهم .

الأب ألم تسمعي صوت زخات الرصاص ؟ انهم يسعون لاخافتهم وحملهم على التفرق .. ولكنهم ، إذا جد الجد وافلت الزمام ، ومضت التظاهرة الكبرى إلى غايتها ، فانهم سيحولون فوهات رشاشاتهم قليلا إلى اسفل ، وهم على استعداد لان يحصدوا منهم المئات ..

(تهرع الأم الى النافذة وتتوسل الى سمير ان يبعد قليلا).

سمير (بصوت طفولي عذب) اريد ان اشترك معهم يا أبي.

الأب فيما بعد يا ابني ، فيما بعد.. انك صغير بعد.

سمير انني اعرف ثلاثة من رفاقي في المدرسة حدثوني يوم امس انهم سيخرجون مع امهاتهم واخواتهم واخوانهم الكبار .. كانوا فرحين .. ولم يعد بمقدورهم في الدروس الاخيرة ان يفهموا حرفا واحدا مما يقوله مدرسوهم .. وعندما غادرنا المدرسة التفت بعضهم الى بعض فرحين وقالوا غدا سنضرب اليهود بالحجارة..

الأب ولكنك اصغر منهم بكثير .. انهم في الصف السادس .. اليس كذلك ؟ اما انت فلا تزال بعد في الثالث .. وانني اعدك – إذا ما كبرت قليلا – بالخروج معهم

كلما اردت، وسوف اجعلك تضربهم بالرصاص بدلا من الحجارة ..

(تكون الأم قد اختفت خلال الحوار الاخير .. تعود وهي تعين ابنها الكبير سامر ، الذي جاوز الثامنة عشرة من العمر على الصعود)

الأب اظن انه قد اطمأن بالك الان .. زوجك وصبياك في الغرفة بعيدا عن الاذى وليذهب الاخرون الى الجحيم ..

الأم حاشا لله .. يا أبا سامر .. حاشا لله .. اما انت فانك اديت دورك بامانة وشرف ، ولو كان بمقدورك ان تواصل الدرب لما وقفت لحظة في طريقك .. ولكنه المرض القاسي .. واما هذان فاحدهما طفل بعد.. والاخر (تخفض صوتها) كسيح ..

سمير لم اعد طفلا يا اماه وسوف اخرج معهم .

سامر (يدفع عربته جانبا ويتحرك باتجاه اخيه وهو يضحك) اتذكر ما حدث يوم امس عندما ثارت اعصابك لان البيضة التي ستفطر عليها لم تسلق جيدا ؟

سمير (لا يلتفت اليه موجها الحديث الى امه) ساخرج معهم .. يعني ساخرج معهم ..

سامر وضعت البيضة في يدك اليمنى وسحقتها ببساطة .. وانك في نظر اي جندي اسرائيلي لا تعدو ان تكون هذه البيضة الصغيرة .. انهم سيعصرونك في قبضاتهم الغليظة (يضحك).

سمير (مستمرا) انني لا اطيق ان التقي غدا باصدقائي فيحدثونني عما فعلوه وانا اتسلى بقصصهم دون ان افعل شيئا .. قبل ايام حدثنني احدهم أن يهوديا حاول التحرش باخته وهي تسعى لايصاله الى المدرسة فما كانن منه الا ان بصق في وجه الجندي فتلقاها هذا ساكتا دون ان يفعل شيئا .. عدت الى البيت حزينا ذلك اليوم .. وحلمت بانني اغرز سكينا في صدر الجندي ..

(الاصوات تزداد اقترابا .. وخلال لحظات يرى الى اسفل من النافذة عدد من الجنود الاسرائيليين وهم يتراجعون بسرعة مصوبين رشاشاتهم بزاوية مائلة الى فوق ، مطلقين بين الحين والحين زخات من الرصاص ... وما تلبث طلائع المظاهرة الكبيرة ان تحاذي الشارع الموازي للنافذة .. يزحف سامر لكي يطل برأسه من هناك .. يستغل سمير الفرصة فينسل من بينهم دون ان يشعروا ..)

صوت سحقا .. سحقا .. يا صهيون ..

الجمهور سحقا .. سحقا .. يا صهيون ..

صوت نحن فداؤك يا مسجدنا ..

الجمهور نحن فداؤك يا مسجدنا ..

صوت اسحب قرارك يا رابين ..

الجمهور (نكسر ايدك) يا رابين ..

(زخات اخرى قاسية من الرصاص .. اكثر اقترابا هذه المرة .. واكثر انخفاضا على ما يبدو ..)

صوت باسمك .. باسمك .. يا محمد

الجمهور نحميك يا فلسطين ..

(الرصاص ينصب بدوي مرعب .. وهو يوجه الان افقيا بمستوى المتظاهرين .. الاصوات المنتظمة الواضحة تتحول الى صراخ رهيب .. حركة المتظاهرين تضطرب، قليل منهم يتراجع الى الوراء ، ولكن معظمهم لا يبالون بالرصاص .. يمضون في تقدمهم وهم يواصلون هتافاتهم .. تلتفت الأم فجاة وتدير عينيها بفزع في ارجاء الغرفة ، بينما يلتصق الأب وابنه الكبير بالنافذة تماما متجاوزين اي احساس بالخوف .. تخرج الأم من الغرفة وتعود بعد لحظات وهي تنادي بفزع) ..

الأم سمير .. لقد افلت سمير ..

الأب (يلتفت اليها كما لو يسترد نفسه من حلم بعيد) سمير ؟

الأم (وقد اصفر وجهها) لقد عملها الشقي .. ساهرع للبحث عنه .

(زخات اخرى من الرصاص المختلط بالصراخ) .

الأب (صائحا) اجلسي مكانك .. انا الذي سأخرج لاسترداده ..

سامر (بدون وعي) البيضة الهشة يا أبتاه ..

(يفتح الباب بعنف على مصراعيه ، يدخل احد المتظاهرين .. رجل جاوز الاربعين من العمر وهو يحمل سمير وقد تلطخ وجهه وملابسه بالوحل والدماء..)

الأم (متوسلة) ابني ..

الرجل (بتأثر) لقد اصابته رصاصة جندي اسرائيلي في صدره وهو يهرع نحوه وبيده هذه السكين.

الأب (مع نفسه) كان يعالج بها لعبة الميكانو قبل قليل ..

الرجل كادت اقدام المتظاهرين تدوسه لولا ان اسرعت الى التقاطه ، فاشار الى هذه النافذة (ثم بصوت متهدج) اظن انه قد مات !!

الأم (وهي تشد شعرها) وابناه ..

سامر (وهو يبكي بصمت) لقد سحقوا البيضة الهشة يا ابتاه .. دعني فلا تنقم له ..

الأب (بصوت يابس) انت ؟! لا يا ابني .. لا ..

(يتجه إلى الجثة الصغيرة فيقبلها وهو يبكي ثم يستل غطاء فيلقيه عليها .. ويخاطب نفسه) .

الأب هذا يوم تتفتت فيه الاكباد.. فانا لله وانا اليه راجعون ..

(مع انهمار الرصاص نسمع مقاطع بعيدة من اصوات المتظاهرين) .

صوت مسراك يا قائدنا

الجمهور يغزوه اليوم الدجال

صوت نفديك يا مسجدنا

الجمهور بالرجال وبالاطفال !!

– ستار –

المشهد الثاني

(نفس المنظر السابق .. في اليوم التالي ..
تبدو الأم وقد اتشحت بالسواد ولكنها اكثر صبرا وتجلدا .. الأب اقرب الى الفرح منه الى الحزن .. اما سامر فانه يتحرك في الغرفة بقلق واضح .. نلمح في وسط الغرفة جثمان سمير وقد هيء للدفن ، تحوطه باقات من الزهور .. من النافذة تطرق اسماعنا اصوات حشود من الناس المتجمهرين في الشارع العام ازاء البيت ..)

الأب (من النافذة) ها هم قادة التظاهرة الاوفياء يقررون القيام بتشييع بطلنا الصغير (تتعثر الكلمات في صدره) تشييعا جماعيا مرموقا يناسب الطموح الكبير الذي كان يعتمل في قلبه الصغير ..

الأم (تطل من النافذة هي الاخرى) انهم يتجمعون هناك لكي ينطلقوا به بعد قليل في نفس الشارع الذي استشهد فيه .. سأخرج معهم .. وفي ذلك عزائي ..

الأب أما انا .. فيا لتعاسة حظي .. يعجزني الخروج مع هذا المرض القاسي الذي لا يرحم .. ومع نصائح الاطباء التي لا ترحم هي الاخرى .. ساكتفي بالبقاء هنا لاستقبال المعزين .. ان ابني يخصني اكثر من اي مخلوق اخر في العالم (مستدركا) اللهم الا أُمه .. ومع ذلك احرم من المشاركة في تشييعه ..

الأم بعد ان قتل لم يعد يخص احدا بالذات .. لا أباه .. ولا أُمه .. لقد اصبح ملك المدينة كلها .. وها هي المدينة كلها تخرج لتشييع ابنها العزيز فقر عينا ..

سامر (بعصبية) اما انا فسأخرج مهما كلفني الأمر .. انه اخي وانا اولى الناس به..

الأب ورجلاك ؟

سامر سانطلق بعربتي الخاصة .. عشر سنين وانا اتجول بها في الشوارع والاسواق .. فعلام التردد هذه المرة ؟

الأم الازدحام الشديد يا سامر .. (كمن تتذكر) وربما..

سامر ماذا ؟

الأم لم يرق للجنود الاسرائيليين هذا التشييع المهيب ، وربما ظنوه تحديا واستفزازا ..

الأب وماذا يكون اذن ؟ خروج مدينة كاملة لتشييع طفل كان يحلم بقتل اسرائيلي .. ماذا يكون ؟

سامر سأعرف كيف أوجه عربتي وسط الحشود ، وسيساعدونني ، ولا ريب ، على ذلك ..

(يفتح الباب ويدخل اربعة رجال ، يضعون على صدورهم شارات سوداء، يؤدون التحية برقة بالغة ويستأذنون بحمل الجثة ..)

أحدهم لقد انتظمت جموع المشيعين كافة ، وحانت ساعة التحرك ..

آخر لم نكن نتوقع ان يكون عددهم بهذا القدر .. لقد تقاطروا اثر سماعهم النبا من كافة القرى والارياف المحيطة بالمدينة .. بل ان بعضهم قدم من بلاد نائية ..

الأب وهل سيمضي الموكب بهدوء دون ان تعكر مسيرته استفزازات الجنود ؟

احدهم لقد قرروا ارسال سرية كاملة لمرافقة الموكب بحجة المحافظة على الأمن ..

آخر وقيل بان قائدها هو نفسه الذي قاد حملة الارهاب يوم امس ضد التظاهرة الكبرى عزرا كوهين ..

سامر (بانفعال) امتاكد انت من ذلك ؟

الرجل هذا ما اشيع في المدينة ..

سامر ولماذا اختاروه هو بالذات ؟

الأب ان الرجل يملك قدرا كبيرا من الرعونة والطيش وانني اخاف ان ينقلب التشييع الى مأساة مروعة ..

رجل اخر لا تخف .. لقد اعددنا العدة لكل طارىء ..

الرجل الاول (مخاطبا الأم) وستسيرين انت في مقدمة الموكب .. فانت لست امه وحده .. انك أمنا جميعاً .. فلسطين نفسها وهي تتقدم الموكب لتشييع احد عشاقها الصغار !!

الأم (دامعة العينين) كان يحلم دائما بان يقدم لأمه التي احبها شيئا غاليا ..

سامر ما من مخلوق ولد من رحم هذه الأم الا وهو يحلم بان يقدم لها شيئا عزيزا

(يحرك يديه بعصبية).

(يتقدم الرجال لحمل الجثة .. وقبل مغادرتهم الباب يفسحون مجالا للأم ثم يخرجون وراءها .. يخرج سامر في اعقابهم دافعا عربته بسرعة ثم ما يلبث ان يتوقف قليلا اذ يسمع نداء ابيه).

الأب أنب عني يا سامر في مراسيم التشييع والدفن .. كن رجلا وتجلد ، فالمصائب التي حلت بابناء هذه الارض طيلة نصف قرن لم تدع فوقها طفلا .. الكل

اصبحوا رجالا قبل موعدهم بعشرات السنين .. ليس ثمة طفولة في تاريخ لم يعرف غير الحزن والتشريد والقتل .. ويوم نضمن لابنائنا فرحا حقيقيا .. يوم نحميهم من المطاردة الدائمة .. يوم نحصن احلامهم الصغيرة ضد اشباح الرصاص والدم والبارود.. يومذاك يمكن ان تنبت الطفولة في ارضنا ..

سامر (وقد اختفى عن الانظار) اما الان ، والى اليوم الذي ستكف فيه المطاردة والخوف ، فانه مكتوب علينا ان نشرب الدم وتتنفس البارود.. ذلك قدرنا يا ابي .. وسأكون رجلا كما تريد وسأتجلد.. سأكون رجلاً يا أبي ..

(يتجه الأب صوب النافذة ويطل من هناك على الموكب الذي بدأ يتحرك الان ..)

الأب (مخاطباً نفسه) وهم بلا ارض اعمق ارادة واكثف وجودا من الكثيرين ممن يملكون الارض ، ولكنهم يتحركون الى غدهم ببطء ومذلة .. لا يقدرون على شيء ..

(ينظر الى الساعة ويفتح المذياع .. نستمع الى اصوات المذيع الاسرائيلي وهو يقرأ نشرة الاخبار ..)

المذيع هذا هو الموجز وفي النشرة طائفة اخرى من الانباء .. قرر مجلس الوزراء الاسرائيلي في جلسته المنعقدة مساء يوم امس ، واستنادا الى تقرير المحكمة العليا ، الغاء القرار السابق الخاص بالسماح لليهود بالصلاة في المسجد الاقصى .. هذا ..

الأب (يقفل المذياع) لقد تراجعوا اذن أمام هذا الاصرار العظيم .. ولكننا يجب ان نكون دائما على حذر لان الأفعى ستعرف كيف تبحث عن مكان آخر لكي تصب سمها فيه ..

(ما نلبث ان نسمع صوت انفجار هائل يعقبه اطلاق زخات من الرصاص وصرخات واصوات متقاطعة لا نكاد نتبينها)

الأب (مصفر الوجه يخاطب نفسه) ايكون هذا هو المكان للدغة الافعى ؟

(يتحرك ببطء راجعا إلى مكانه من النافذة .. فترة صمت تستمر عدة دقائق تقطعها الاصوات الحادة المختلطة بين الحين والحين .. بينما يلتصق الأب بالنافذة محاولا معرفة ما يجري .. ينفتح الباب بعنف بالغ .. يدخل ضابطان اسرائيليان من ذوي الرتب الصغيرة وهما يصوبان رشاشيهما إلى الأب .. يفغر

الرجل فاه دهشة وهلعا).

الضابط الاول لقد قتل القائد واثنان من مرافقيه وجرح سبعة آخرون ..

الضابط الثاني أما هو فقد تمزق إربا ..

الأب من ؟!

الضابط الاول ابنك الكسيح ..

الأب (صارخا) سامر ؟!

الضابط الثاني لقد كانت عربته مليئة بالمتفجرات .. اندفع بها على حين غفلة مارقا كالسهم من الموكب صوب كتيبة الحراسة ، وسرعان ما دوى الانفجار الرهيب .. (يصرخ) سوف نعاقب بقسوة .. سوف تدفع القدس الثمن غاليا (مخاطبا الضابط الاول) فتش جيدا هذه الدار بحثا عن الاسلحة والمتفجرات .. اما انا فسانتظر هنا..

الأب (كما لو يحدث نفسه) لا يمكن .. إنَهُ كسيح ..

الضابط لو استطعتم ان تقلعوا عيونكم وتقطعوا ارجلكم ، لقتالنا ، لفعلتم ، مختبئين وراء العرج والعمى ..

الأب (مستمرا) كنت ألمح ضوء غريبا ينقدح من عينيه بين الحين والحين .. كنت المس قلق روحه .. لكنه .. كان .. كسيحا !!

(ينفتح الباب فجأة وتدخل الأم وهي تلهث ..)

الأم (تحاول ان ترفع صوتها قدر ما تستطيع وفرحه الثأر ترتسم على محياها ودون ان تنتبه لوجود الضابط) لقد انتقموا له يا أبا سامر ولم يمض يوم واحد على جريمتهم .. ألم يعد سامر بعد ؟

(تنتبه لوجود الضابط فتسكت فجأة) ..

الضابط (من خلال ضحكة صفراء متيبسة) اتكونين أمه ؟

الأم (بتحد ودون ان تتحقق من مغزى كلامه) نعم إنه طفلي ..

الضابط (من خلال الضحكة نفسها) ألاّ تشعرين بأسف عليه ؟

الأم **(بتحد اكبر) على العكس .. انني احمد الله على ان جعل ابني يموت فداء للمسجد الاقصى[٢] ..**

الضابط **(مناديا على رفيقه) ألم تجد شيئا من المتفجرات بعد ؟**

الاخر **(في غرفة اخرى) كلا ..**

الاول **(وهو يشير الى الأم) لا داعي للاستمرار في التفتيش .. فقد عثرت انا عليها!!**

– ستار –

(٢) من كلمات الأم التي استشهد طفلها في قرية قريبة من القدس المحتلة.

أكاديميون

(المنظر غرفة اساتذة قسم (...) في كلية آداب جامعة (...) الدكتور عبد الفتاح يذرع الغرفة بعصبية ، ويقف بين الحين والحين لكي يخرج من حقيبته الأنيقة رزمة من الاوراق يقلب صفحاتها .. الدكتور نجيب يجلس الى احدى المناضد يكتب شيئا .. بينما يقف الدكتور بطرس يتمعن في تقويم معلق على الجدار ...)

د. عبد الفتاح (محدثا نفسه) نصف ساعة .. نصف ساعة فقط .. وتعرف النتيجة .. قليلا من الصبر .. يا فتاح ..

د. بطرس (ناقرا اصبعه على التقويم) الاثنين ، الاربعاء .. الاثنين ، الاربعاء ..

د. نجيب ثلاثة وعشرون ، وسبعة ونصف ؟ ثلاثون ونصف ، الغ النصف ، الباقي ثلاثون .. (يلتفت الى دكتور بطرس) استحلفك بالله هل هذا مبلغ يستحق الاحترام؟

د. بطرس (غير منتبه الى سؤال زميله) الاثنين .. الار .. بعـ .. اء اذا استعطعت يا بطرس ان تفلت من هذين اليومين فلك ان تضمن نسبة اعلى ..

د. نجيب إن الخطأ لا يكمن في عدم تجمع العطل الرسمية جميعا في يوم واحد ، وليكن الاثنين مثلا فهذا مستحيل ، لكنه يكمن في النظام نفسه ، نظام المحاضرات التي يسمح للعطل بان تلتهمها ببساطة !! تصور يا دكتور بطرس انني تمكنت من الالتفاف حول اكبر قدر ممكن من العطل عبر الموسم الدراسي كله ... لكنني لا استطيع ان التف حول النظام نفسه ، حول تحديد قيمة المحاضرة الواحدة ، حول كمية المحاضرات الاضافية نفسها .. حول اشياء كثيرة اخرى ان ثلاثين دينارا اضافية لا تعينني على الظهور في المجتمع بالمظهر اللائق .. اترى هذه الحقيبة؟

د. بطرس (لا يزال يردد الاثنين .. الاربعاء ، وكأنه شارد في عملية حسابية معقدة، ينتبه فجأة) اية حقيبة ؟

د. نجيب هذه التي تراها أمامك .. فيبر امريكي اول باب ذهبت الى المصنع في كاليفورنيا .. الى المصنع نفسه .. واعطيتهم اوصافها .. اوصاف حقيبة كنت احلم بحملها منذ كنت طالبا في كلية الآداب ، وانا أرى بعض الأساتذة يحملون حقائبهم الفارهة ويميلون باجسامهم الرشيقة حيث مالت الحقائب .. كاد المنظر المهيب ان يسلب لبي .. ومن يومها وانا انتظر اكمال دراستي ، واجتياز ممرات الكلية بالحقيبة

اياها، والدخول على الطلاب .. تماما كما كان اساتذتنا يدخلون علينا .. (يضحك).

د. بطرس (جادا) انك تدين نفسك يا دكتور نجيب .. كانك تريد ان تقول ان سعيك لاكمال دراستك لم يكن هدفه وجه العلم الخالص ، او الحصول على الشهادة على الاقل ، انما ..

د. نجيب (مقاطعا) هذا لا يتعارض مع ذاك !!

د. بطرس لماذا لا نكون صادقين مع أنفسنا ونعترف .. انا مثلا لا تهمني المظاهر ولكن ما وراءها ..

د. نجيب المال .. مثلا ؟

د. بطرس لماذا لا نسميه (الحقوق المشروعة) ؟ ، ما الذي دفعنا إلى ان نجهد السنين الطوال ؟ امن اجل ان نعود لكي نحظى براتب شهري مساو لذلك الذي يحظى به حامل البكالوريوس ؟ لا بل هناك ما هو اسوأ من هذا .. ان الذين مارسوا التعليم الابتدائي ، بعد اجتيازهم مرحلة الخامس الاعدادي مباشرة ، يملكون الان اكثر منا بكثير .. اتدري لماذا ؟

د. نجيب هذه مسألة معروفة ، لانهم عينوا قبلنا بعشر سنوات او اكثر ...

د. بطرس بالضبط .. ومع ذلك فان المنفذ الوحيد ، المحاضرات الاضافية ، يضيق يوما بعد يوم .. لعنة الله على العطل الرسمية .. يوم الجيش ، يوم المعلم، يوم الأمي ، يوم العامل ، يوم الطالب ، يوم المرأة ، يوم الطفل ، يوم الرضيع ، يوم الأجنة ، يوم القيامة ...

د. نجيب يوم القيامة ايضا ؟

د. بطرس بالنسبة الينا على الأقل ... ألا تكفي عطلتنا الصيفية الطويلة لكي نحاصر بالعطل خلال الموسم الدراسي من أقصاه الى أقصاه .. يبدو ان الزمن لا قيمة له عندنا ..

د. نجيب قال لي احدهم انه صدر قرار باستعارة عشرة ايام من ايلول لاضافتها الى آب لانه سينفجر من كثرة ما حمل من العطل .. وستسمع يوما عبارة الثامن والثلاثين من آب !!

د. بطرس آب لا بأس .. المهم ألاّ يمسوا تشرين او كانون او أيار !! (يعود الى التقويم) الاثنين .. الاربعاء .. الاثنين ...

د. نجيب (يفتح الحقيبة ويخرج قطعة سندويش من احدى جيوبها ، ويمد يده الى الجيب

الآخر فيخرج قطعة كيك ويبدأ بالتهام غدائه) تفضلوا شاركوني..

د. بطرس شكرا .. فقد أكلت قبل قليل ...

د. عبدالفتاح (يرفع رأسه عن الاوراق ويبتسم ابتسامة سريعة وهو يقول) انك يا دكتور نجيب لم تشتر من كاليفورونيا حقيبة .. اؤكد لك ..

د. نجيب (وهو يزدود لقمة كبيرة) اشتريت ماذا اذا ؟

د. عبدالفتاح مطعما متنّقلا !! (ضحك)

د. نجيب وانتم .. تحملون في حقائبكم مكتبات منتقلة .. اليس كذلك ؟

د. عبدالفتاح هذه على ما اعتقد مهمة الحقائب ..

د. نجيب ولكن يبدو ان كتبها مخصصة للاعارة الخارجية وليست للاستعمال الخاص !!

د. عبد الفتاح كيف ؟

د. نجيب حاولت ان اتصفح ذات يوم ما تضمّه حقيبتك الموقرة .. فلم استطع ..

د. عبد الفتاح لماذا ؟

د. نجيب لأن الكتب كانت لا تزال مقفلة الأوراق ، لم تمسها يد ، ولم اشأ ان اسبقك في الاطلاع عليها .. فهذه اسرار يجب ان تصان.

د. عبد الفتاح يبدو انها مشتريات حديثة ؟

د. نجيب لا .. أبداً ، لانك وضعت عليها تاريخ الشراء (نيسان ١٩٦٧) وانا حاولت استراق النظر اليها في تشرين اول عام ١٩٧٣ !

د. بطرس من تطحنه المظالم المالية لا استطيع ان يقرأ .. ان يفتح كتاباً ..

د. نجيب وكيف اذن ستحظى بترقيتك العلمية ؟

د. بطرس (ببساطة بالغة) كتابة بحث علمي اسهل بكثير من قراءة كتاب.

د. نجيب لا اعتقد.

د. بطرس ان قراءة كتاب تكلف ذهنك جهدا ، اما كتابة بحث (علمي) فلا تتطلب منك اكثر من نقل عدد من النصوص وتنسيقها ، وفق اصول البحث الحديثة ، وتثبيت هوامشها بدقة ...

د. نجيب والاجتهاد ؟ ووجهات النظر الشخصية ؟ والتحليل ؟ وصياغة طريقة العرض ؟

د. عبد الفتاح هذه جميعا مسائل (غير علمية) ، عملية اسقاط لا منهجية للذات على الموضوع ، البحث العلمي هو ان يتجرد الباحث عن اهوائه ، ان ينسلخ عن ذاته ، والا يتعامل

الا مع النصوص ..

د. نجيب وان يكتب بحثه العلمي في خمس صفحات او ست ..

د. عبد الفتاح ليس المهم حجم البحث ، ألم تقرأ تعليمات المجلة الاخيرة ؟ انها تلزم الاساتذة بالا تتجاوز ابحاثهم التي يتقدمون بها للترقية الست صفحات من الحجم الكبير ، بل انني اعتقد على العكس ، بان البحث كلما كان اكثر تركيزا كان اكثر علمية !!

د. نجيب لهذا ، ورغبة منك في ان تكون اكثر عملية ، لا تطلع علينا في العام الواحد باكثر من بحث لا يتجاوز الخمس صفحات .. ولولا ضرورات الترقية العلمية لما كتبت هذه الصفحات.

د. عبد الفتاح (بنوع من الغضب المكبوت) هذا خير من ان نحمل حقائب مزيفة ..

د. نجيب احمل في حقيبتي طعاما يؤكل في يومه خير من ان احمل كتابا لا يقرأ الا بعد عشر سنوات.

د. عبد الفتاح (وقد هزم) دكتور نجيب .. هذا مزاح ثقيل لا اسمح لك به .. ولولا ان القلق يحاصرني في انتظار النتيجة لعرفت كيف اسكتك .. (ينظر الى ساعته) لم يبق الا دقائق .. سامحك الله يا دكتور نجيب !

د. نجيب (وهو يزدرد آخر لقمة) لم أرد الا المزاح البريء .. وانا مستعد لان اسحب كلامي ..

د. بطرس (محاولا ان يغير الموضوع) ان دكتور فتاح قدم منذ اكثر من شهر بحثين علميين (اصيلين) طالبا ترقيته العلمية المستحقة .. ولم يأته الجواب لحد الآن رغم انه مضى اكثر من ثلاثة اشهر على استحقاقه هذه الترقية .. يبدو ان هناك في الجامعة من يقف في طريقه !!

د. عبد الفتاح ليس لي عداء مع اي موظف في الجامعة صغيرا كان ام كبيرا ..

د. نجيب (يعود الى سخريته المبطنة) ليس العداء الشخصي ، بل لعله العداء العلمي .. اعني ربما يكون الحسد ؟

د. عبد الفتاح (غير منتبه الى كلام زميله) ان اعضاء لجنة الترقية كلهم من المتخصصين في غير الفروع الانسانية ، فكيف لهم ان يقيموا ابحاثنا بشكل علمي ؟!

د. بطرس على اية حال ، ان اللجنة مجتمعة الان ، وستقرر فيما تقرر مصير طلبك..

د. عبد الفتاح (مشيرا الى البحثين) (المنطق الاقتصادي للفتح الاسلامي) (القانون الروماني

كأساس للتشريع الاسلامي) .. ما ادراهم بهما ؟ (ينظر الى ساعته) اذا بر الدكتور عباس بوعده فانه سيعطيني النتيجة بالتلفون ، بعد دقائق .. آه .. لقد ارهقني البحث والانتظار وقد آن لي ان ارتاح .. انني تعبان .. آه ..

د. نجيب ليكن الله في عونك .. ان كتابة بحثين علميين (اصيلين) من عشر صفحات او عشرين اكثر عناء من تأليف كتابين او ثلاثة لا تلتزم منهج البحث العلمي سيما اذا كان البحثان معدين للترقية العلمية !!

د. بطرس (بما يقرب من السذاجة) وهل نجهد في ميدان البحث الا لغرض الترقيه العلمية ؟!

د. عبد الفتاح (مقلبا صفحات البحثين) لقد اكلتما اعصابي .. ولكن ساعة الفرج قريبة، وسوف أخذ بعدها عطلة فكرية طويلة .. طويلة .. دكتور نجيب .. انني تعبان ..

د. نجيب ولكن ماذا ستقدم للترقية التالية ؟ ان عليك ان تعد العدة فور ترقيتك الاولى للزحف الجاد صوب الثانية ، وهذا يقتضي منك ان تجهد من جديد وتشمر عن ساعد (العلم) لكتابة بحثين آخرين ..

د. عبد الفتاح هنالك ، بعد ، خمس سنوات اخرى ، وعندما تنقضي هذه السنين الطويلة، يطاح بألف عمامة كما يقول المثل ..

د. نجيب إلا العلم فانه لا يتأثر بتقلبات الزمان ..

د. عبد الفتاح ولم لا ؟ ألاّ ترى ان القوانين تذيل باستمرار ؟ أشد القوانين صرامة تذيل، اكثر التشريعات خطورة تذيل .. اتدري معنى ان يوضح للقانون ذيل؟

د. نجيب نعم .. التمهيد لركوب القانون !!

د. عبد الفتاح بالضبط .. وسرعان ما يضيع الجوهر ولا تتبقى الا الذيول ..

د. نجيب لكثرة ما يركب المسكين !!

د. بطرس ولكن ما علاقة التذييل القانوني بالترقية العلمية ؟

د. عبد الفتاح دكتور بطرس .. ما كنت اظنها تخفى عليك ..

د. بطرس ؟

د. عبد الفتاح بعد اربع سنوات او خمس تكون الذيول ، والتحفظات ، والترخيصات التي الحقت بقانون الترقية القائم على ضرورة تقديم مالا يقل عن بحثين، قد طغت على القانون نفسه ، نظرا لكثرة الطلبات والالتماسات .. وحينذاك سأنفذ الى هدفي بسهولة .. دكتور عبد العزيز المرجاني .. لعنة الله عليك !!

د. نجيب لماذا ؟

د. عبد الفتاح لأنه هو الذي سن هذا القانون وكانت المسألة قبل ذلك مجرد عد سنوات!!

د. بطرس لقد حاول احد اساتذة الاقتصاد ان يترقى ببحثين استلهما من اطروحته ، وعندما اعترضت اللجنة عليه تمكن بتاثيراته التي لا تقاوم من تغيير اعضاء اللجنة ، فوافقت اللجنة الجديدة بالاجماع !!

د. نجيب لا ريب انهم متضلعون في مادة الاقتصاد ؟

د. بطرس على العكس انهم جميعا من اساتذة الطب والجراحة ...

(جرس التليفون يدق ، يقفز اليه دكتور عبد الفتاح بخفة ويرفع السماعة)

د. عبد الفتاح ألو .. ألو ..... ؟

د. عبد الفتاح نعم .. انا عبد الفتاح .. من ؟ بطرس ؟ (مع نفسه) لعنة الله عليك وعلى بطرس ، كنت اتصورك دكتور عباس ، (يرفع صوته) هذا بطرس، كلمه يا دكتور بيترز !!

(ينهمك دكتور بطرس في المكالمة ، ويتجه نجيب الى اوراقه ، بينما يدخل احد الطلاب)

الطالب صباح الخير دكتور عبد الفتاح

د. عبدالفتاح (بضجر) صباح الظلمات .. ماذا تريد ؟

الطالب قضية التقارير ..

د. عبد الفتاح أية تقارير ..

الطالب تلك التي كلفتنا بكتابتها

د. عبد الفتاح نعم .. ماذا بها ؟

الطالب نريد ان تعفينا منها ..

د. عبد الفتاح لماذا ؟

الطالب تعفينا منها ، لان تقارير بقية الاساتذة جاوزت الحد..

د. عبد الفتاح وما شأني انا ببقية الأساتذة .. التقارير يجب ان تكتب.

الطالب ان الطلبة متجمهرون بالباب ، وانهم قد قرروا اعلان الاضراب عن الحضور لمحاضرتك ان لم تستجب لمطالبهم بالغاء التقارير ..

د. عبد الفتاح (وقد ادرك خطورة الموقف فاراد مداراته بالمزاح المبطن بالجد) قولوا لجامعتكم ترفع

عنا كتابة الأبحاث لاغراض الترقية ، نرفع عنكم كتابة التقارير لغرض النجاح !! واحد زائد واحد يساوي اثنان .. اليس كذلك يا دكتور نجيب ؟

د. نجيب كلا .. يساوي ثلاثة !!

د. عبد الفتاح لماذا ؟

د. نجيب لانه من المستحيل ان نجمع برتقالتين الى ثلاث بيضات وتقول تساوي خمسة (يخرج)

(يدق جرس التلفون .. يضطرب دكتور عبد الفتاح ، ويشير الى الطالب بان يخرج وينتظر قليلا .. يرفع السماعة)

د. عبد الفتاح ألو .. ألو .. نعم .. اهلا. دكتور عباس ؟ ابشر يا اخي لقد نفد صبري .. ماذا ؟ (يمتقع وجهه قليلا) الهوامش ؟ ماذا بها ؟ اقل مما يجب؟ عجيب !! ان ثلاث صفحات من البحث الاول وصفحتين ونصف من البحث الثاني تزيد فيها الهوامش على المتون .. ماذا يريدون اكثر من هذا لكي يكون البحث علميا ؟ خمس صفحات ونصف من مجموع عشر صفحات .. ويعترضون ؟ ماذا ؟ يريدون مزيدا من الهوامش ؟ كان بمقدوري ان اكتب لهم ابحاثا كلها هوامش .. ولكن اين يذهب البحث نفسه ؟ ماذا ؟ واحد على خمسة ؟ ماذا تعني ؟ سطر في المتن يجب ان يقابله خمسة هوامش ؟ هذه تعليمات ؟ هكذا يقول اعضاء اللجنة ؟ لماذا لم تبلغونا بذلك قبل هذا الوقت ؟ ابعد ان شاب رأسي وابيضت مفارقي من العمل اجابه بهذه التعليمات ؟ ومن هم اعضاء اللجنة يا دكتور عباس ؟ متخصصون ؟ هذا معروف ، وعلماء ؟ هذا معروف ايضا ومفروض في أية لجنة جامعية .. ولكن ما هو تخصصهم ؟ الرياضيات والكيمياء ؟ وما هي علاقة الرياضيات والكيمياء بالتاريخ ؟ يقولون ان العلم هو العلم وانهم ينفذون تعليمات صارمة مكتوبة امامهم ؟ (يزداد يأساً) وما العمل يا دكتور عباس ؟ ستحاول معهم ؟ بارك الله فيك .. وسوف لا انس فضلك .. انني بانتظار مكالمة اخرى منك .. تذكر انني على احر من الجمر .. مع السلامة ..

(يضع السماعة ويرتمي على المقعد باعياء .. يدخل الطالب)

الطالب تسمح دكتور عبد الفتاح ؟ ان الطلاب يلحون على ضرورة اعطائهم النتيجة خلال دقائق ، فان عددهم يزداد ، وقد بداوا بوضع الملصقات الجدارية التي تندد

بك ..

د. عبد الفتاح أية نتيجة ؟

الطالب قضية التقارير ..

د. عبد الفتاح اذهب فقل لهم ان استاذكم ينتظر نتيجته الخاصة وعلى ضوئها سيقرر.

الطالب الطلبة لا تهمهم مسائلك الشخصية ، انهم يريدون ان ترفع عنهم التقارير. اتسمع .. انهم الان يهتفون ضدك ..

(تسمع نداءات من خارج الغرفة يسقط دكتور عبد الفتاح .. لتذهب إلى الأبد دكتاتورية التعليم .. ماذا تريدون ؟ نريد رفع التقارير .. الخزي والعار لدكتور فتاح .. لا .. للدرجات القليلة .. نعم .. للسخاء ..)

د. عبد الفتاح انها ليست قضية شخصية .. انها علمية صرفة ..

الطالب وما علاقة الطلاب بذلك ؟

د. عبد الفتاح ألا تهمهم مسألة العلم ؟ إلا يعنيهم المستقبل العلمي لاستاذهم ؟

الطالب (بنفاذ صبر) الذي يهمهم فقط هو ان ترفع عنهم التقارير ..

(جرس التلفون يدق ، يرفع الدكتور عبد الفتاح السماعة)

د. عبد الفتاح نعم .. دكتور عباس ؟ انتهت ؟ انتهت كيف ؟ رقيت .. ؟ .. (يتنفس بعمق) الحمد لله .. الحمد لله ، سوف لا أنسى دورك يا دكتور عباس .. سوف لا أنسى دورك (يضع السماعة) .. (يلتفت الى الطالب) قل لرفاقك الان ان استاذكم مستعد ليس لرفع التقارير وانما لرفع درجاتكم جميعا الى التسعينات .. والى رفع اي شيء يريدونه !!

الطالب (فرحا) ألف شكر يا دكتور عبد الفتاح .. ألف شكر (يفتح الباب ينادي الطلبة) رجاء .. انتبهوا الي .. ان دكتور عبد الفتاح وافق على مطاليبكم وزيادة ، وانه مستعد الآن لرفع اي شيء تطالبونه برفعه !!

الطلاب بل نحن نرفعه على رؤوسنا .. (يندفعون الى الغرفة وهم ينادون) يعيش دكتور عبد الفتاح .. لتحيا الى الأبد ديموقراطية التعليم .. لا تقارير بعد الان ..

د. عبد الفتاح (ضاحكاً) ولا ابحاث بعد اليوم !!!

– ستار –

صرخة عند المسجد الاقصى

(المنظر : مسجد الصخرة وقد تساقطت بعض جوانبه .. الدخان لا يزال يتصاعد .. السور الخارجي والفسحة الأمامية تبدوان بوضوح في الجهة القريبة من المسرح ، اما صحن المسجد فلا يبدو منه سوى جزء صغير في الجهة البعيدة من المسرح ... حارسان اسرائيليان يذرعان السور جيئة وذهابا .. يتحدثان وعيونهما تراقب بحذر وتوجس جوانب المكان..)

الحارس الاول اذا استطعنا ان نصمد لعاصفة السخط التي سيثيرها الحريق في انحاء العالم ، كما صمدنا من قبل ، فان مستقبلا عظيما ينتظرنا .

الحارس الثاني هيكل سليمان يعود ؟! غفرانك يا يهوذا .. يا رب اسرائيل ..

الاول يقام من جديد.. بعد انتظار الفين وخمسمائة من السنين !! أمل لم يكن اجدادنا ، ولا حتى آباؤنا ، يتوقعون ان يشهده التاريخ .. وها نحن نقف على مشارف العصر الذي انتظرناه طويلا .. البناء وهو يقام !! ان سليمان سيباركنا في السماء ..

الثاني ولكنه لن يغفر لنا الشتائم القاسية التي الحقناها به وبآبائه عبر العصور ، والتي تعج بها كتبنا المقدسة !!

الاول سوف يغفر سوف يغفر. انه بمجرد ان يرى الهيكل يقام على قواعد من الذهب الخالص ، فسوف يسكر منتشيا ، وسينسى كل شيء. اي نبي في الارض يرى هذا الذهب ثم تتبقى في نفسه .. من غضب ، لا لشيء الا لأن سباباً قاسيا لحقه في يوم من الايام ؟ اي اعمى لا ينساب بريق الذهب الى ضميره ووجدانه فيغسل ما علق بهما من اوهام وخرافات ؟

الثاني (مشيرا الى قبة المسجد) ولكن هذه .. هذه !!

الاول (ضاحكا) بالأمس احرقنا جانبا كبيرا من المسجد واحلناه الى ركام ودخان وغدا ، عندما تسكن عاصفة الغضب والاحتجاج ، سوف نخطو الخطوة التالية فنهدم هذه القبة من الجذور !!

الثاني لن اصدق هذا .. لن اصدق هذا ..

الاول بلى ، سوف تراه بأم عينيك .. ستفتحهما يوما لترى المسجد الاقصى وقد غدا ارضا جرداء .. مساحة رائعة تمتد الى جهاتها الاربع بلا عائق ، وانذاك ستبدا

معاول صهيون بحفر القواعد التي سيقوم عليها الهيكل الكبير ..

الثاني يا إله اسرائيل .. ولكن ..

الاول ولكن ماذا ؟

الثاني لو يتمكن شعبنا من الصمود ازاء العاصفة ، لو يقدر قادتنا على تفتيت وحدة الحس الاسلامي في غمار ماساته التي نكتبه باعز ما يملك ، واعادت الى وجدان كل مسلم ما كان يشعر به يوما من تواصل عميق مع سائر المسلمين في شتى اقطار الارض ..

الاول لا تخف هذا التواصل .. ان تجارب التاريخ المعاصر ، على ثقلها وعنائها ، لم تستطع ان تعيده الى ضمائر المسلمين وقلوبهم .. فهل بامكان حريق بسيط كهذا ان يعيده ؟ ان القطيعة التي تتآكل مسلمي اليوم .. الجدران التي تعزلهم واحدا عن الآخر .. والسدود التي اقامها اصدقاؤنا بين حكامهم وشعوبهم جميعا ، سوف تتيح لنا ان نمضي الى هدفنا دونما رهبة او تردد او خوف ..

الثاني ولكني المح اليوم نذير عاصفة مخيفة توحي الي ان الوحدة القديمة بين المسلمين ، وحدة الضمائر والقلوب ، ستعود .. يجمعها الحزن الذي أثاره الحريق، ويشدها الغضب الهائل الذي احال كل قلب الى قطعة من جمر تقذف نارا ، تبدو وكانها ستستحيل يوما الى جحيم لن تصمد اسرائيل على الوقوف ازاءها.

الاول يبدو انك متشائم اكثر مما يجب. وانني اذكر جيدا يوم انتصرنا على العرب في حرب الايام الستة ، كيف ملك الخوف عليك اقطار نفسك ورحت تؤكد لي انهم سينتقمون .. وان ثأرا مريعا ستشهده اسرائيل ، ثأرا لا يبقى على شيء في صهيون ولا يذر ..

الثاني ولكن خوفي اليوم ينبثق من معين اكثر رعبا .. واني لالمح بام عيني ما سيجره علينا تدمير المسجد الاقصى .. ان القضية اليوم تتعلق بمصير الوجود الاسلامي كله .. سبعمائه مليون مسلم لا يمكن ان يقفوا ساكتين تجاه رمز وحدتهم الاخير ، وهو يتداعى ، تاكله النار ، ويتصاعد الدخان من اركانه وبقاياه .. لا يمكن لهم ان يدعوا الحزن يتاكلهم من الداخل وهم يقفون واجمين ، لا يحركون ساكنا ولا يطلقون صرخة ..

الاول ان قادتنا اذكى من ان يسعوا بارادتهم الى مجابهة خطيرة كهذه ، انهم – من

جهة – سيدمرون على المسلمين مسجدهم في المدى الطويل .. موجات متعاقبة، يباعد بينها الزمن ، ويلف النسيان اثارها واحزانها . وهم – من جهة اخرى – يعرفون كيف يفتتون هذا الحس الواحد ، هذا الحزن المشترك، وهذا الغضب المدوي .. ان قادتنا سيهيئون الارض لمولد احداث مضادة جديدة تمتص هذا الحزن وذلك الغضب ، احداثا تبدو في ظاهرها عملا خطيرا ضد اسرائيل ، ولكنها في حقيقتها ليست سوى ستراتيجية صميمة .. واني لارى بوضوح بوادر هذا الأمتصاص وذلك التفتيت !!

الثاني (يركع مصليا) يا يهوذا .. يا رب اسرائيل .. اعط الفرصة لشعبك المختار كي يحقق ما حلم به منذ عشرات القرون .. ان يقام الهيكل ، وتصعد من اركانه الاربع صلوات يهود ، تمجد الاله الذي ساق شعبه الى مصيره العظيم ..

(يمرق فدائيان فينقض احدهما على الحارس الاول ويطعنه بسكين بينما يقوم الفدائي الآخر بخنق الحارس الثاني بهدوء .. يتنحى الفدائيان جانبا بترقب وحذر ، بينما يجتاز المكان ثلاثة فدائيين آخرين وهم يحملون مدفعا كبيرا لاطلاق الصواريخ .. يختفي الثلاثة ويبقى الفدائيان الاولان).

الفدائي الاول اذا استطاعوا ان يصلوا بالمدفع الى المكان المحدد تماما فسوف تستيقظ اسرائيل ، بعد اقل من ساعة ، على سماء القدس وهي تمطر نارا.

الفدائي الثاني بشرط ان تتمكن الوحدات الخمس الاخرى من نصب مدافعها في الأماكن المرسومة ..

الاول لن يخالجني الشك في ان الله سبحانه وتعالى سيحجب عن عيون الاسرائيليين حركة اخواننا في قلب القدس .. ولن اشك في انه – سبحانه وتعالى – سيتيح لجنده عما قليل ان يصبوا حقدهم المقدس في قلب المدينة التي نفذت فيها المؤامرة الدنيئة ..

الثاني لكم اتمنى ان اغدو قذيفة يصبها مدفع كبير على رأس من الرؤوس التي اسهمت في هذه المأساة (ينظر بأسى وغضب الى الدخان المتصاعد)

الاول ان الغضب يثور في اعماقي ولن يدعني اقر الى قرار ، او اعرف طعم النوم قبل ان ترغم حركتنا بني صهيون على الاعتقاد بان مؤامرة كهذه وحدثا خطيرا كهذا ، لا يمكن ان يمر بسلام. اننا من جهتنا نؤدي دورنا في مدى قدرتنا .. ولو اتيح لكل

مسلم ان يتحرك ليؤدي دوره في مدى قدرته .. لو اعطيت الحرية لكل شعب مسلم ان يعبر عن غضبه وحزنه بحركة ما ، بتنفيذ فكرة ، بتحويل هذا الغضب وهذا الحزن الى افعال وخطوات .. لو تم هذا وذاك .. لكان حريق المسجد الاقصى كفاء لما فجر في قلوب المسلمين من غضب ، وما احرق به افئدتهم من سخط ورغبة عاتية في الانتقام ..

الثاني ترى هل تتحقق امنيتك هذه ، فيجد المسلمون انفسهم وهم يتحركون بحرية تامة صوب حماية مسجدهم المقدس الذي نافح اباؤهم عنه قرونا طوالا ؟ وها هم اليوم يستيقظون على رؤى النار والدخان وهو يتصاعد من اطرافه .. وسيستيقظون غدا على اصوات المعاول والفؤوس وهي تزيح الركام لتبدا عملها في اعلاء هيكل سليمان. ما الذي اتاح للمسلمين ، في الماضي ، ان يخلصوا مسجدهم من اخطار كهذه ؟

الاول ليست سوى حرية الحركة .. حرية تحويل الكلمات الى خطوات ، والافكار الى اعمال ، والمشاعر الحبيسة الى نار حقيقية تتفجر في وجوه الذين سعوا الى دمار هذا المسجد .. الحرية التي اعطت لكل مسلم ، في الماضي ، فرصته الكاملة في ان يرفع سلاحه ، في الوقت المناسب ، وان يتقدم دونما عائق ، لحماية مقدساته والانضواء تحت القيادة التي يراها جديرة باداء هذا الدور الخطير ..

الثاني أما نحن فاننا نبرىء ذمتنا امام الله .. وملعونون هم اولئك الذين خانوا العهد واقاموا الاسوار امام حرية المسلمين .. ملعونون هم اولئك الذين خنقوا الصرخة في نفوسهم ، والكلمات في حناجرهم ، واحالوا المشاعر الحبيسة الى دمار يسحقهم من الداخل ، ملعونون هم اولئك الذين سدوا الطريق امام الفكرة ان تغدو عملا ، ودمعة الاسى الحزينة ان تصبح انذارا ورعبا ينصب على رؤوس قتلة الانبياء ..

الاول ترى ما الذي سيقوله المسلمون غدا لصلاح الدين وهو يسألهم ، دامع العينين عن ضياع المسجد الذي قاتل دونه طوال سني مسؤوليته ؟

الثاني أما نحن فان لدينا ما نقوله من خلال لغتنا الخاصة .. ولكن ماذا لو رأى النار تتصاعد من قلب المسجد والدخان ينبعث من بين الركام .. ماذا لو رأى النار والدخان (يتلاشى صوته .. ويختفي الفدائيان .. صوت مجموعة من الخيول

قادمة من بعيد .. مقدمة المسرح خالية لحظات .. وسرعان ما يظهر (المنادي) بملابس المسلمين في عصر الحروب الصليبية .. يقف عند اسفل الجدار ويلمح الدخان المتصاعد بأسى عميق .. ثم ما يلبث ان يشير الى الجهة التي تنبعث منها اصوات الخيول وينادي)

المنادي السلطان الناصر صلاح الدين بن يوسف قادم عما قليل لأداء الصلاة يصحبه ابناؤه وحاشيته وقادته .. السلطان يلمح الدخان من بعيد فتغمر الدهشة والقلق ملامح وجهه .. ها هو يقترب من مصدر الدخان .. يترجل على الارض ويتبعه ابناؤه وحاشيته وقادته .. يعاين بقايا النار التي تنخر في اسس المسجد.. السلطان ينتفض غضبا ويصرخ ..

صلاح الدين (دون ان يرى هو او احد من اتباعه على المسرح الا من خلال ضباب كثيف) من الذي اشعل هذه النار ؟ اي ملعون اوقد هذا الحريق ؟ المسجد الاقصى يحترق ؟ اين ذهبت اذن تلك الجهود المضنية التي بذلناها طوال سنين صعبة من اجل هذه البقعة المباركة ؟ ايمكن لانهار الدماء التي فجرها المجاهدون بقلوبهم واشلائهم ان تضيع ؟ (يرتفع صراخه) انني اسالكم من الذي اشعل هذه النار ؟ ! (اصوات استنكار وهمهمات تنبعث من الجموع التي تحيط به .. ومن سائر المسلمين الذين قدموا لاداء الصلاة..)

المنادي أي غضب مريع هذا الذي يسيطر على ملامح السلطان هذه اللحظة ؟ اي اسى عميق هذا الذي يتفطر به قلبه ؟

احد ابناء صلاح الدين (يأتي صوته من بعيد) هون عليك يا أبتاه ، ان ما أكلته النار تستطيع انت ان تعيده كما كان ..

الابن الاخر تستطيع يا أبتاه ان تبعث رسلك الى اقطار الارض تستقدم البنائين، وفي مدى ايام فحسب سيعود المسجد كما كان .. شامخا، منيعا ، يتحدى الزمن..

صلاح الدين ولكنيّ احس بانه ليس بامكاني ان استعيد البناء ، ان ثمة جدارا شاهقا يقف بيني وبين ما اريد .. لن استطيع ان اكتب الى البنائين في مشارق الارض ومغاربها .. ستجد الخيول المنطلقة اليهم ، اقدامها تغوص في الوحل وقوائمها تلتصق بالطين.. انني واثق من انها ستتهاوى ، بما عليها من رسل ، في اعماق الوحل والطين ..

الابن الاول ولكن .. اتذكر يا أبتاه كيف استطعت ان تعيد تحصين المدينة باجمعها، وتقيم سورها المنيع في ايام معدودات قبل ان تداهمها جيوش الاعداء ؟

احد القادة إن أمراء المسلمين جميعا جند لك .. قل ما تشاء فانهم سامعون مطيعون..

صلاح الدين (بأسى) كان ذلك زمن ، يا ابنائي واصحابي ، لم يكن فيه هذا الجدار الذي يفصل بيني وبين ارادتي وامرائي ..

الابن الثاني زمن غير هذا ؟ لم يمض على ذلك اكثر من شهور يا أبتاه !!

صلاح الدين شهور ؟ أبداً .. أبداً .. ان الذي يفصل بيننا وبين ذلك الزمن قرون طويلة .. طويلة .. ملاها التاريخ احداثا مرة كالعلقم .. وسد طرق المسلمين عبرها بالشوك، وادمى قلوبهم بالجراح .. شهور ؟ أبداً أبداً..

الوزير وهل ثمة تاريخ اكثر مرارة وشوكا وجراحا من تاريخك انت يا سيدي وتاريخ شعبك ؟

صلاح الدين (يصرخ فجأة) كلا .. لقد كنا نملك نحن من الايمان والارادة ... ونستشعر من الحرية ما اتاح لنا ان نستمرىء العلقم في سبيل الاهداف الحلوة ، وندوس على الشوك صوب المستقبل السعيد ، ونتقبل الجراح والنزيف من اجل ان لا ترى هذه البقعة المباركة دما وجراحا ونزيفا .. انكم ترون الان .. انظروا .. اليست هذه النار التي تلفظها جدران المسجد نزيفا يمتص الدماء من قلبه الكبير ؟ اليس هذا الدخان .. هذا السخام المتصاعد الى السماوات .. حزنا عميقا يعبر به المسجد الاقصى عن المه وجراحاته، ويشكو الى الله عزلته ووحدته وعذابه ؟ اي زمن هذا؟ كلا.. لقد كنا آنذاك نملك الايمان والارادة والحرية ..

الابن الاول أرى انك تتكلم بلهجة الماضي يا أبتاه ؟ !

صلاح الدين (بحزن) وهل أنا الآن .. هذه اللحظات .. الا ماض سحيق عفى عليه الزمن ، وغمر وجوده الحاضر ركام الاحداث ، وذكريات السنين ؟ انني ماض يا ولدي .. انني ماض (يتلاشى صوته) .

المنادي (تخنقه العبرة) السلطان يبكي .. عيناه تذرفان دمعا سخيا .. دموعه تنساب على لحيته .. ان حريق المسجد الاقصى فتت فؤاده المرهق الحزين .. السلطان يبكي .. (اصوات الحاشية والقادة والمصلين دعنا ايها السلطان نطفىء الحريق بايدينا واجسادنا .. مرنا .. نفتدي المسجد المبارك بقلوبنا وارواحنا ..)

صلاح الدين لن تستطيعوا .. ان زمناً طويلاً يفصلكم عن القدرة على افتداء هذا المكان .. ان ثمانية قرون تعزلكم عن الواقع المر الذي تتنزل فؤوسه على بنيان المسجد فتحيله الى بقايا وانقاض .. انكم تحيون في ماضيكم بعيدين بعيدين .. عن ان تفتدوا مسرى نبيكم بالقلوب والارواح ..

المنادي الأبناء والقادة والرفقاء ، يتحركون وكانهم يستيقظون من حلم عميق .. ان كلمات السلطان فتحت وعيهم على حقيقة ما هم فيه .. ولكن انظروا ان السلطان يعود فيركب فرسه ، بينما تغمر الدهشة والحيرة جميع من معه .. يلتفت السلطان ويقول لهم :

صلاح الدين (وقد ابتعد صوته اكثر) انني لست غاضبا لان المسجد الذي ضحينا من اجله طيلة سني مسؤوليتنا ، قد ضاع .. ولكن خجلا عاتيا يغمرني ، يترع وجداني بالحيرة والالم .. كيف سانقل الخبر الى رسول الله ؟

الحاشية (بتاثر عميق) والخطبة يا صلاح الدين ؟

صلاح الدين لن تروني اخطب بعد اليوم .. ان الخطب يجب ان تستحيل عملا وانجازا .. وكيف اخطب والدخان يتصاعد من مسرى رسول الله ؟ كيف يتاتى للكلمات ان تجتاز شفتي وانا ارى النار والرماد تلطخان الساحة التي صلى فيها الرسول العظيم باخوانه الانبياء .. ثم غادر الارض ، في رحلته العظيمة صوب السماوات حيث لقي خالقه ؟ لن تروني اخطب بعد اليوم .. فيما مضى كنت اخطب فيكم اثر كل فتح او نصر .. وبعد كل عمل وانجاز .. اما اليوم فلم يبق عصر السلب والانهزام هذا مجالا للكلمات .. واحرى بالمسلمين بعد اليوم ان لا يسالوا كلمات وخطبا .. ولكن ان يفتحوا اسماعهم جيدا لاصوات ..

(تسمع اصوات انفجارات قوية متتالية تنبعث من اماكن شتى .. يتلاشى المنادي .. تختفي اصوات صلاح الدين وحاشيته .. تغيير في الانارة المسرحية نرى بعدها الفدائيين اللذين شهدنا حوارهما من قبل)

الفدائي الاول (كمن يستيقظ من حلم عميق) اتسمع ؟ ! رباه .. لقد نجحت العملية ..

الفدائي الثاني (وكأنه يستيقظ هو الآخر من الحلم العميق) انهم يمطرون القدس الجديدة لاول مرة بالصواريخ ..

الفدائي الاول ليعلم قادة يهود .. وشذاذ الآفاق .. ان احفاد صلاح الدين لن يسكتوا ازاء تدمير

قبلتهم الاولى ومسرى نبيهم العظيم (في ذهول) وانهم يستجيبون اليه بعد لحظات من دعوته اياهم ان يستبدلوا الرؤى بالحركة، والكلمات بالافعال .. وبدلا من ان يسمعوا اعداء الله واعداء الرسول اصواتا رتيبة هادئة ، عليهم منذ الان ان يسمعوهم صراخا .. وان يمطروهم نارا ..

الفدائي الثاني (بدهشة بالغة) انت ايضا ؟!

الفدائي الاول ماذا ؟

الفدائي الثاني نفس النداء انبعث الي .. وبعد لحظات فحسب بدات صواريخ اخواننا تتفجر غضبا ونارا تتفجر على رؤوس الملعونين .. (يتعانقان ..)

– ستار –

شيء عن الموت

(شرفة الباخرة كارديليا المتوجهة من الجزائر الى مارسيليا .. ترى في الجهة اليسرى نافذة واسعة وباب مفتوح يفضي الى الصالة العليا حيث يجتمع المسافرون للشرب وتبادل الاحاديث وسماع الموسيقى والرقص .. اما الجهة اليمنى فتطل على البحر حيث يرى ممتدا الى الافق البعيد وحيث ترى الشمس وهي تميل الى الغروب .. عندما ترفع الستارة نلمح رجلا في العقد الخامس يقف الى حاجز الشرفة متاملا البحر .. هندامه من النوع الطبيعي .. لا اناقة زائدة ولا اهمال بارز ، يمدّ يده الى جيبه ويستخرج دفتر مذكرات صغير ويدون بعض الملاحظات .. انه الدكتور رباح احمد الجزائري المتخصص في علم النفس .. من الصالة تنبعث موسيقى صاخبة وايقاعات رقص عنيف..)

د. رباح **(يقفل دفتر المذكرات ويتحدث الى نفسه) انهم لا يدعون احدا يرتاح قليلا .. هذه الصرخات المجنونة التي تزعق كالوحوش الضارية .. لقد اختلطت علي اصوات الالات النحاسية وصرخات الحناجر البشرية نفسها (بغضب مكبوت) آلات .. آلات رخيصة (يفتح دفتر مذكراته ويقرأ) انني اشعر بنشوة غامرة وانا اقف هنا قبالة البحر والسماء .. ادون بعض افكاري ومذكراتي .. ان الأمتداد اللانهائي للبحر والسماء ، وزرقتهما النقية كالبلور، يجعلان الانسان يقف في قلب التجريد.. انه نقيض الاكتظاظ والتخمة الشيئية التي يحاصرنا بها عصر التكاثر هذا .. انني اكاد اضع يدي على احساس نقي ، متفرد ، طالما افلت من بين يدي وانا اتخبط في الزحام .. انه (التحرر) من الشد الثقيل الذي يرهق الناس ويفتت وجدانهم ، التحرر الذي يغسل رين القلب والعقل فيغدوان اكثر استشرافا للحقيقة والجمال .. والتصاقا بهما .. آه (يدوي صوت الموسيقى وضربات الطبول في الداخل .. يقفل الدفتر) ولكن هذه .. هذه .. انها تلاحقنا حتى في رحيلنا وتخففنا .. انها تفرض حصارها علينا حتى بين البحر والسماء .. هذه الالات الرخيصة..**

(يخرج من الصالة شاب في الخامسة والعشرين من عمره ذو ملامح مغربية ناعمة ، وبدلة غاية في اناقتها .. يتجه الى الشرفة وهو يحمل حقيبة صغيرة من النوع الخاص بالاوراق .. يلمح الدكتور رباح فيحييه باحترام بالغ ..)

المغربي فرصة سعيدة دكتور رباح .. انني في الحقيقة اغبط نفسي اذ جمعتني هذه الرحلة بك .. قال لي بعض الاصدقاء انك ذاهب الى جامعة ليون في رحلة تستغرق شهرين لمتابعة بعض بحوثك وتجاربك هناك ..

د. رباح هذا صحيح .. اين تعتزم الذهاب ؟

المغربي (بابتسامة سعيدة) الى الجامعة نفسها للتخصص في علم الاجتماع ..

د. رباح علم الاجتماع ؟ هذا شيء رائع ..

المغربي لقد حصلت على بعثة دراسية من وزارة التعليم أمدها ثلاث سنوات .. هل تعتقد ان هذا يكفي للحصول على الدكتوراه ؟

د. رباح بكل تأكيد ..

المغربي ومع ذلك فقد اعطوني شبه وعد بانهم سيمددون الفترة الممنوحة ستة اشهر اخرى اذا اقتضى الأمر ..

د. رباح لا اعتقد انك ستحتاج اليها اذا شمرت عن ساعد الجد..

المغربي من اجل ذلك جئت التمس مشورتك .

د. رباح (كمن يتذكر شيئا مهما) ولكن قل لي في اي موضوع تنوي ان يكون بحثك؟

المغربي لم اقرر لحد الان .. وان كنت انوي ان اعكف على ..

د. رباح (مقاطعا) ماذا لو اعددت العدة لدراسة موضوع طالما اغفله الباحثون سواء في التخصص الذي اعمل فيه .. ام في علم الاجتماع هذا ..

المغربي (بنفس الأبتسامة) ستكون كلماتك واراؤك بمثابة الضوء الذي ساقطع الطريق على هديه .. هذه اول مرة اغادر فيها الى فرنسا .. انني رهن مشورتك .

د. رباح (وهو ينظر الى الافق) الموت !!

المغربي (بدهشة) الموت ؟

د. رباح واقعة الموت .. ردود فعل جماعة بشرية ما تجاه واقعة الموت .. تحليل منحنيات هذه الردود كما ونوعا وتكثيفها في انماط معينة يمكن ان تنسحب على كافة الجماعات.

المغربي ولكنه اقرب الى علم النفس ..

د. رباح ليس بين العلمين سوى حاجز رقيق شفاف .. سرعان ما يتلاشى اذا ما عرفنا ان كلا العلمين يبحثان في الانسان فردا والانسان في جماعة .. ثم انني ابحث عمّن

يعينني في مهمتي التي اسافر من اجلها ..

المغربي أية مهمة ؟

د. رباح ردود فعل الانسان تجاه واقعة الموت ..

المغربي انها كما قلت اذن .. مهمة علماء النفس.

د. رباح لا فرق .. لا فرق .. الاجتماع ، النفس ، حتى التاريخ والفلسفة والدين ، كلها تبحث في الانسان .. وهنالك من يدعو اليوم الى ادخال البعد الانساني في اشد العلوم المحضة نايا عن العلاقات البشرية .. الرياضيات مثلا ..

المغربي ولكن في الموضوع بعدا ميتافيزيقيا .. امتدادا غيبيا .. وانا ارفض الميتافيزيقا وارفض الغيب !!

د. رباح (بابتسامة رقيقة) ستقول انهما نقيضان للدراسة العلمية التي تسعى الى حصر الوقائع المادية المنظورة وتفحص سلوكها تجاه تاثير ما لتبين النتائج التي تؤول اليها والقوانين التي تتحكم في توجهها ذاك صوب النتائج ..

المغربي بالضبط انني ذاهب للتخصص في العلم .. لا الخرافة !!

د. رباح على رسلك .. ولا تسرع في تكديس الالفاظ بعضها فوق بعض .. ان هذا لا يخدم نقاشنا .. ثم انني اعتقد انك قد بلغت حدا من النضج يجعلك تتجاوز مرحلة المحفوظات ..

المغربي (وكأنه قد بوغت) المحفوظات ؟

د. رباح ترداد الكلمات والافكار كعبارات جاهزة دون تبين الفرق النوعي بينها .. دون ادراك الأبعاد الحقيقية التي تفصل بعضها عن البعض الاخر ..

المغربي ولكن جميع الاساتذة الذين تلقيت محاضراتي عليهم اكدوا لي هذا ..

د. رباح تقصد معظمهم .. اليس كذلك ؟

المغربي تقريبا ..

د. رباح (يربت على كتفيه) عالم الاجتماع اولى بان يكون حذرا تجاه التعميم .. ماذا تحب ان تشرب ؟

المغربي اشكرك .. لا اشتهي شيئا .. لقد شربت قبل قليل قنينتين من البيرة ..

د. رباح اعتقد ان الشاي الممزوج بالحليب يمكن ان يرطب حلوقنا .. ان امامنا حديثا طويلا (يصفق فيطل احد الخدم من النافذة المجاورة) كوبان من الشاي الممزوج

بالحليب رجاء (يلتفت الى المغربي) قلت انك ترفض الميتافيزيقا او الغيب اذا شئت.. اليس كذلك ؟

المغربي بالضبط.

د. رباح والميتافيزيقا او الغيب يمتدان الى كل ما لا تقدر حواسنا النسبية المحدودة على التواصل معه .. كل ما لا تراه العيون او تلمسه الايدي او تسمعه الاذان .. الى آخره .. وبالتالي يصعب حصره مختبريا لتفحص طبيعة عمله ..

المغربي بالضبط ..

د. رباح ولكن اذا قدرنا على التواصل مع هذا العالم بوسائل اخرى غير الحواس فهل لنا ان ننكره او نرفض التعامل معه ؟

المغربي ليس ثمة غير الحواس ما يحملنا الى النتائج الصحيحة .. النتائج اليقينية..

د. رباح في العلم ليس ثمة نتائج يقينية .. هذه مسلمة يجب الا تخدعنا عنها فلسفة العلم المبهورة .. اذا كان العلماء انفسهم يؤكدون على ذلك فليس للفلاسفة ان يزيدوا عليهم .. انهم في هذه الحالة سيكونون ملكيين اكثر من الملك ، كما يقول المثل .. ثم ان الفلسفة لا تمس الوقائع بالحس بقدر ما تتعامل معها بالفكر والمنطق والتبصر ..

المغربي مهما يكن من امر فان الحواس هي سيدة الموقف ، وهي سفينتنا الى الحقيقة النهائية ..

د. رباح (مشيرا الى الافق) انظر .. اترى الى اشعة الشمس الصفراء وهي تميل الى ان تكون اكثر دكنة لحظة بعد لحظة ؟ انها ستغدو بعد قليل حمراء بلون الدم.

المغربي شيء رائع حقا .. كنت احلم بهذا المنظر ..

د. رباح (مستمرا) من كان يعرف الى عهد قريب ان ضوء الشمس هذا يتضمن كذلك الاخضر والازرق وغيرهما من الالوان ؟

المغربي لا احد ..

د. رباح كانت هذه الالوان الخفية غيبا .. كانت ميتافيزيقا .. وكان البحث عنها محاولة غير مجدية قبل عدة قرون .. من قال ان قوانين الكون والعالم وموجوداتهما قد تكشفت كلها ؟ من قال ان الغيب الذي لا نراه الان لا يمكن ان نرى بعض جوانبه الاخرى في مستقبل قريب او بعيد ؟ في ازمان واماكن اخرى ، وباجهزة اكثر رقيا

وتعقيدا ؟

المغربي ولكنني اقصد الحصر المختبري ..

د. رباح (مستمرا) لم يقدر لاحد حتى الان ان يحصر الضوء مختبريا ويتفحص تركيبه النهائي .. انها مجرد تخمينات .. فاذا عدنا الى مسالة الالوان مرة اخرى تبين لنا كيف انهم تمكنوا من كسر حاجز الالوان السبعة الى ما فوق البنفسجي وما دون الاحمر .. ومن يدري ؟ من يدري ؟ (بلهجة ذات مغزى) انه لا يزال غيبا .. ونويات المادة اعلنت اخيرا العصيان على سادة المختبر فاستسلموا بعد صراع طويل واعلنوا ان تركيب المادة الكونية امرا غيبيا !!

المغربي دكتور رباح .. اعتقد اننا قد ابتعدنا عن الموضوع .. وانا جئت اطلب مشورتك ..

د. رباح بالعكس .. اننا في صلب الموضوع .. فها انذا استطيع ان اقول ان ظاهرة الموت كالضوء تماما تحمل الوجهين معا .. ما يرى وما لا يرى ..

المغربي الموت هو في نهاية التحليل تلف في الانسجة وتحلل في تركيبها وعدم قدرتها بالتالي على مواصلة العمل .

د. رباح هذا هو الوجه الاول .. ولكن هناك وجها اخر ، ابعد واخطر واكثر تعقيدا ..

المغربي اذا تجاوز العلم هذا الوجه تحول الى دين وفلسفة ..

د. رباح أنا معك في هذا ، ولكن نفي وجود الوجه الاخر للموت مسألة غير علمية .. اذا فهمنا العلم – بتواضع – على انه البحث عن الحقيقة .. انه السؤال الأبدي لماذا كتب على الاجهزة ان تتلف ؟ لماذا نموت ؟ فاذا قدرنا على الاجابة عن سؤال كهذا بانه سنة الشيخوخة التي تمضي بكل الحيوات والاشياء الى نهايتها المحتومة ، اذا قدرنا على هذا فاننا سنقف عاجزين في الخطوة التالية ان الانسان يموت في كثير من الاحيان ومعظم اجهزته سليمة تماما ، تمارس مهمتها بقدر كبير من الحيوية .. ومع ذلك فهو يموت .. لا ريب ان هنالك قوة ما بانفصالها عن الياف الانسان واجهزته تصبح هذه الالياف والاجهزة عديمة النفع .. عديمة الجدوى .. لقد اعترف العلماء الكبار .. بعجزهم عن فهم عمل الدماغ البشري .. وهذا ينسحب بطبيعة الحال على عمل الروح...

المغربي (وهو يرفع صوته ليتغلب على زعيق الموسيقى) ولكنني ذاهب الى هناك لتحقيق هدف محدد .. علم الاجتماع ..

د. رباح ليتهم يكفون قليلا .. انهم لا يرتاحون ولا يدعون احدا يرتاح .. ومن قال لك ان عليك ان تبحث حقيقة الموت ؟

المغربي ماذا اذن ؟

د. رباح أنت سقتني الى هذا الموضوع لابين لك بعض المسائل التي تخفى على الكثيرين من المبهورين بمنجزات العلم الحسي التجريبي .. رغم ان الكبار ممن صنعوا هذا العلم وكشفوا عن سننه اكثر تواضعا واقل غرورا .. انني عرضت عليك دراسة ردود فعل عينة اجتماعية تجاه واقعة الموت .. وهذا من صميم عملك ..

المغربي كيف ؟ ان حصر عدد كبير نسبيا من الناس لتفحص ردود افعالهم تجاه واقعة الموت ، مسالة مستحيلة .. هل اجازف بالذهاب الى ساحة الحرب ؟

د. رباح (وهو يتفحص اناقة المغربي) لا اعتقد ان هذا بمقدورك ..

المغربي الجلوس طويلا في ردهة مستشفى ما لتفحص ردود فعل مجموعة من الذين يعانون مرضا خطيرا ؟ ان هذا يجابهنا بمشكلة اخرى .. ضيق مساحة العينة الاجتماعية المراد دراستها ..

د. رباح ولا هذا ..

المغربي (مبتسما) كان علي ان اكون في هيروشيما او ناغازاكي وهي تتعرض للدمار الذري .. انها اكبر (عينة) في تاريخ الأبحاث ..

د. رباح (بتأثر) لا تزال ردود الفعل محفورة في اعصاب الابناء والاحفاد ، منقوشة على جباههم .. يقال انها تنتقل اليهم على محمولات الوراثة .. لا ليس هذا ..

المغربي ولكن (يحاول ان يرفع صوته للتغلب على زعيق الموسيقى مرة اخرى فاذا بالموسيقى تكف فجأة فيشعر بالحرج ويخفض صوته) ولكن .. (نسمع من اجهزة تكبير الصوت داخل الصالة نداء من قائد السفينة وهو يخاطب الركاب).

قائد السفينة أيها الركاب الاعزاء ، ليست هذه هي المرة الاولى التي تجابه فيها سفينة ما بعض المتاعب .. لا نريد ان نخفي شيئا عليكم من اجل ان تكونوا اكثر وعيا بما يحدث واستعداداً لمزيد من التحمل والانضباط .. لقد حدث ارتطام جزئي في مقدمة السفينة بجسم مركب قديم كان قد استقر في الاعماق على ما يبدو منذ فترة بعيدة .. ولقد احدث الارتطام شقا في الجهة اليسرى من المقدمة واخذ الماء يتدفق منه بغزارة .. لقد طلبنا قبل ربع ساعة من ركاب الطابق الارضي ان يصعدوا الى الطوابق العليا

لكي يتاح لنا التحرك بحرية لمجابهة الثغرة التي يتدفق منها الماء .. ان محاولات جادة ومستمرة تجري لاصلاح الخلل وان كنت لا اكتمكم انه اخذ بالاتساع رغم كافة المساعي .. وكل ما نرجوه هو المزيد من الهدوء والانضباط .. والمزيد من الالتزام بتعليماتنا التي ستصدر تباعا ..

المغربي (بحزن شديد) كنت احمل معي طالعي المشؤوم منذ اللحظة التي ولدت فيها .. ماتت امي لحظة خرجت الى هذه الدنيا السوداء .. عشرون سنة وانا اكد من اجل ان اصنع مستقبلي ..

د. رباح ها نحن بدانا نضع خطواتنا في دائرة الخرافة .. اي طالع مشؤوم هذا ؟! اننا جميعا نتعرض لنفس المحنة ، وها هن امهاتنا لا يزلن احياء ..

المغربي (غير ملتفت اليه) وعندما اصبحت على بعد خطوات .. ها هي اللعنة تطاردني الى هنا .. من كان يتصور ان الباخرة التي ساستقلها من بين مئات البواخر التي تقطع البحار والمحيطات بالعشرات والمئات .. تتعرض للغرق ؟

د. رباح ومن قال لك انها تتعرض للغرق ؟ ان السفن كثيرا ما يحدث لها هذا ، ولكنها كانت في كثير من الاحيان تخرج من المحنة بسلام ..

المغربي (ساخرا) بسلام ؟ ما دمت انا موجودا فوقها فثق انها لن تخرج بسلام ..

(صوت قائد السفينة يرتفع مرة اخرى عبر اجهزة التكبير)

قائد السفينة أيها الركاب .. ان الخرق اخذ بالاتساع .. والماء يتدفق بقوة .. ولقد اصاب الخلل جهاز الاتصال نفسه ، فلم يعد بمقدورنا الاتصال باية جهة .. ان زوارق الانقاذ محدودة لا تستوعب هذا القدر الكبير من المسافرين .. لذا نكرر ضرورة الالتزام بالانضباط ريثما يتاح لنا ايجاد مخرج من المازق الذي نتعرض له جميعا .. انه لا يزال هنالك امل فلا تياسوا ..

المغربي ألم أقل لك ؟

د. رباح (بابتسامته المعهودة) بدلا من هذا التشاؤم .. من هذه النظرة السالبة .. يمكنك التشمير عن ساعد الجد.. انها فرصة ذهبية ..

المغربي التشمير عن ساعد الجد والموت على بعد خطوات منا ؟ أية فرصة ذهبية هذه ؟

د. رباح أنسيت هكذا بسرعة ؟ ما كنت اتوقع ان رد فعلك تجاه الموت يمكن ان يندرج تحت النمط الشائع ، انت الذي تتقدم للصعود الى قمة الثقافة.

المغربي (بيأس) تجاه الموت يستوي الأمي والمتخصص.

د. رباح (باطمئنان عجيب) معنى هذا ان هنالك رد فعل واحد تجاه هزة الموت .. اين يذهب اذن التغاير النوعي والكمي في المحصلات الوراثية والبيئية ؟

المغربي (مقاطعا) وماذا بصدد المعلومات التي سأجمعها ؟ هل سيتاح لي ان اعكف على دراستها هناك في مختبرات جامعة ليون ؟ انه عبث لا طائل تحته ، فالمعلومات واصحابها سيغدون عما قريب طعمة للاسماك..

د. رباح من يدري ؟ انه ما دام هنالك أمل فانه يتوجب علينا ان نسعى .. ان نواصل اجتياز الطريق الى طموحاتنا واهدافنا .. الا نرمي بخططنا ومشاريعنا جانبا .. انه المبدا الذي اوصانا به رسولنا العظيم ((اذا قامت الساعة وفي يد احدكم فسيلة فاستطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك اجر)). انها فرصة ذهبية ولن تتكرر مرة اخرى .. انها الفسيلة التي قد تخدمك في مهمتك وقد تغدو شجرة خضراء هناك ..

المغربي (بتحسر) هناك ؟ آه .. هل يكتب لنا ان نصل الى هناك .. ؟!

د. رباح سواء اكتب لنا ان نصل ام لا ، فان علينا ان نعمل حتى اخر رمق في حياتنا . هيا ادخل الى الصالة وادرس ملامح الوجوه والتق بالمسافرين واحدا واحدا اسالهم عن كل شيء ذي قيمة مر في حياتهم .. عن خبراتهم.. عن مطامحهم .. عن مخاوفهم .. عن مواقفهم تجاه الكارثة .. دوّن هذا كله في اوراقك فلعلك مستفيد منها يوما .. هيا ..

(يدفعه الى الداخل ويعود الى مكانه من الشرفة وهو يبتسم .. يدخل قائد السفينة الكابتن ادريس مبتسما هو الاخر .. يتجه الى حيث يقف دكتور رباح ..)

كابتن ادريس اعتقد ان الأمور تسير على ما يرام ؟

د. رباح (مربتاً على كتف ادريس) اشكرك جدا !!

ادريس هل ستبدأ عملك ؟

د. رباح لقد بدأته قبل لحظات ..

ادريس ولكنك لا تزال تقف في مكانك .. ان مختبرك هناك (يشير الى الصالة)

د. رباح أتريد ان اصدقك القول ؟ لقد ضربت عصفورين بحجر واحد.. انني اقوم بتجربة مركبة ساقتها الصدفة الي ..

ادريس كيف ؟

د. رباح طالب جامعي ذاهب الى فرنسا للتخصص في علم الاجتماع .. لقد اقنعته بعد طول نقاش بتولي التجربة بنفسه ، وجمع البيانات وتحليلها.

ادريس وهل اعلمته بالأمر ؟

د. رباح كلا ..

ادريس ولكن ..

د. رباح لأنه لا يعرف .. ستكون التجربة مركبة .. ستكون البيانات والتعقيبات مثيرة فعلا .. ان جمع وتفحص الانماط المتباينة تجاه واقعة الموت سيتولاها باحث يعاني هو نفسه من رعب الموت .. وعلى اية حال فسواء كلفته بالتجربة ام لا فانه كان مقدرا عليه ان يجابه الرعب نفسه .. اليس هو واحدا من بين مئات المسافرين المتكدسين هناك ؟

ادريس انني اهنئك على اية حال .. ان محاولتك هذه لن تخدم قاعات البحث فحسب ، بل المخرجين السينمائيين ايضا !!

د. رباح لولا مساعدتك لما قدرت ان افعل شيئا ..

ادريس الحق انني وجدت صعوبة بالغة في اقناع كبار المسؤولين في شركة الملاحة بالموافقة على التجربة ..

د. رباح (مبتسما) على تخويف المسافرين ، وتدمير سمعة الشركة بالتالي ..

ادريس ولكنني قلت لهم ان الحقيقة ستتكشف للمسافرين انفسهم خلال ساعتين فحسب.

د. رباح بعد ان يكون معظم المسافرين قد أقسموا ألاّ يسافروا بحراً بعدها ..

ادريس ثم ان التماس الجامعة الرسمي اعانني كثيرا .. وأخيراً حصلت على الموافقة ..

د. رباح كنت احلم بتجربة كهذه ، ولذا فانني كنت مستعدا لان ارمي بكل ثقلي للحصول على الموافقة .. ان هذه محاولة اولى من سلسلة محاولات قد اقوم بها في المستقبل .. لا بد من المجازفات اذا ما اردنا الحصول على نتائج ذات قيمة .. ان رواد العلم الحديث حققوا منجزاتهم العظيمة بالمجازفات .. انه ما من حضارة تريد ان تقطع خطوات كبيرة الى الأمام الا بوجود حشد كبير من المجازفين .. ان اجدادنا العظام صنعوا هم الاخرون حضارتهم بالمجازفة .. منذ اللحظة التي خرجوا فيها من جزيرتهم يحملون عقيدتهم الجديدة الى العالم لكي يتصدوا لاقوى الدول واعتى الأمبراطوريات ، وحتى قيام رجالهم الكبار بعد قرون عديدة باختراق الصحارى

والغابات والبحار والمحيطات بحثا عن الحقيقة .. انني اشعر هذه اللحظة ان روح ابن بطوطة الطنجي تباركني وتدفعني .. رغم ان هذه هي بداية فقط .. البداية التي لا تكلفني شيئا .. ولكنني اطمح الى ما يكلفني فعلا ..

ادريس ارجو الا تكون محاولتك القادمة على متن احدى الطائرات .. انه لامر مرعب حقا.

د. رباح لا ليس هذا .. هنالك مجالات ومجالات ..

ادريس أتدري ما الذي يحدث في الصالة .. انه امر مثير حقا ..

د. رباح بعد ان كلفت الطالب المغربي بمهمة جمع البيانات يمكنني ان ادخل الصالة لاعاين ملامح المسافرين ، بعيدا عن القيود والمهمات الاكاديمية التي ارهقتني. انني سأدخل الصالة فنانا لا عالما .. ومن يدري ؟ فقد اخرج من التجربة برصيد تعبيري كبير .. سيما وانني املك بعض القدرات في مجال الرسم .. ان لوحة الكريكو (الصرخة) تفرض علي نفسها وانا اتخيل ملامح المسافرين هناك ..

ادريس لقد اجتزت الصالة قبل قليل .. مساكين .. ان اكثرهم رقصا وجنونا غدوا اكثرهم هدوءا واستسلاما .. اين ذهبت تلك الضجة ؟ ها هو الصمت يخيم عليهم وكانهم يغطون في نوم عميق ..

د. رباح وما الذي حل بنافخي الأبواق وقارعي الطبول ؟ لقد كادوا ان يأتوا على اعصابي ..

ادريس ها انت الآن تثأر منهم ، انهم يتلوون رعبا وهلعا .. لقد تقدمت من احدهم وطلبت منه ان ينفخ في بوقه .. قلت له انها فرصة حيوية ممتازة لعزف لحن يعبر فيه عن رؤية الموت القريب وانني ساتولى تسجيله فلربمّا يباع بثمن خيالي اذا ما سمع به عشاق الموسيقى النادرة في العالم ، ولكنه نظر الي بعينين جاحظتين ولم يجبني .. لقد تصور ان المسالة مجرد سخرية ثقيلة لا معنى لها ..

د. رباح لعله اجابك بما اجابني به الطالب المغربي .. ان ما سيعزفه سيستقر صداه في الاعماق ..

ادريس لم ينبس ببنت شفه ، فاردت ان استفزه اكثر ، قلت له اين ذهب ذلك الهواء المضغوط في رئتيك والذي يمكنك من النفخ الدقائق الطوال دون ان تاخذ بديلا عنه؟ لا بد ان شيئا منه يلح عليك بدفعه للخارج ؟ انه شوق السجين الى الحرية .. ان صدرك لم يعتد على حبس الهواء .. اتدري بماذا اجابني ؟

د. رباح (ضاحكا) انه سيدفع به للخارج ولكن بطريقة اخرى !!

ادريس (ضاحكا هو الآخر) بالضبط .. كيف عرفت هذا ؟

د. رباح لا يوجد طريق آخر .. اما هذا او ذاك .. وعلى اية حال فقد ثأرت من زعيق الالات وهي تصرخ في اذني طيلة اربع ساعات .. لقد منعتني حتى من كتابة بعض خواطري التي كنت اؤثر ان ادونها هنا في البحر في لحظات المغيب المؤسية ..

ادريس اطمئن اذن فانها ستخرج باسلوب بشري صرف ..

د. رباح ولكنها ستعزف الحانا !!

ادريس ليست على أية حال بالعنف الذي تمارسه الأبواق ..

د. رباح وماذا عن البار ؟

ادريس لقد ذكرتني .. لم يبق فيه قنينة واحدة .. انهم يريدون ان ينسوا ..

د. رباح ولكنهم سيغيبون اكثر مما يجب .. ان هذا سيؤثر على بيانات صديقنا المغربي ولا شك ..

ادريس اظنك كنت تريد مني ان اقفل البار من اجل بياناتك ؟

د. رباح لا .. أبداً .. ومن يدري ؟ فلعلها تدفعهم الى الادلاء بالحقيقة كاملة .. انها كالحلم نفسه ستدفع بمعطيات لا واعيتهم الى ان تكشف عن نفسها اكثر .. فهناك يمكن ان يجد الباحث الشيء الكثير ..

ادريس ولكن بعضهم فقد وعيه كلية وتحول الى مجرد كومة لا تسمع ولا ترى .. بل انها لا تبدي ما ينبه الى وجودها ..

د. رباح كنت خائفا من هذا .. ولكن لا اعتقد ان الجميع حاولوا مجابهة الموقف بالهروب من خلال هذه الاداة الرخيصة.

ادريس بكل تأكيد .. فهنالك العشرات ممن التقيت بهم في الصالة لا يزالون يحملون قدرا كبيرا من الشجاعة لمجابهة الموقف .. انهم بكامل وعيهم .. بل ان بعضهم عرض علي المساعدة .. وقال اخرون انهم على استعداد تام للتضحية بانفسهم ، اذا اقتضى الأمر ، من أجل النساء والشيوخ والاطفال ..

د. رباح لا ريب ان الطالب المغربي سيدون هذا كله .. ان قيمة الحياة البشرية تبدو في هذا التنوع في (الموقف) ازاء الاحداث والملمات .. ماذا لو تحول جميع المسافرين الى كوم من اللحم الرخو المستلقية كالاشياء العتيقة المهملة هنا وهناك ؟ وماذا ايضا لو شمر الجميع عن سواعد الجد وظلوا عند نقطة التوتر الكامل .. نقطة الوعي

والحرية والمسؤولية ؟ ان بطولة هؤلاء لا تبرز وتتجسد الا من خلال خلفية مليئة بالجثث الملقاة .. باكوام اللحم الحية التي هي اقرب الى عالم الحشرات والهوام ..

ادريس ها انت بدأت ترسم لوحتك الاولى ..

د. رباح (مستمرا) ان ما يريده البعض من توحيد انماط السلوك البشري ازاء المؤثرات المختلفة وصبها في قالب واحد ، كما يصب سائل الحديد الصلب، مسالة مستحيلة .. ليس لان هناك تباينا محتوما يمتد عموديا بالمؤثرات الوراثية وافقيا بالمعطيات البيئية .. ولكن ، ايضا ، لان فلسفة الحياة البشرية وقيمتها وتفردها على سائر الحيوات تقتضي هذا التنوع .. هذا التغاير في انماط السلوك والاستجابات للاحداث والتحديات .. وما دامت هنالك متغيرات على مستوى الوراثة والبيئة .. وما دامت هناك ضرورات عليا على مستوى هدف الحياة البشرية وطبيعة صيرورتها الدائمة ، فان المسافرين على ظهر البسيطة سيتخذون دوما مواقف متغايرة .. تماما كالمسافرين على ظهر كاردينيا هذه .. ان البيانات التي سنجمعها ستخدمنا على هذا المستوى .. فضلا عن نطاق البحث العلمي الصرف .. انني اشكرك مرة اخرى يا كابتن ادريس ..

ادريس رغم صعوبة الموقف بالنسبة لقائد سفينة مهمته ان يصل بالمسافرين معه الى هدفهم بأكبر قدر من الأمن والفرح .. فانني اشعر لاول مرة انني اجتاز عالما جديدا .. اشعر انني خرجت لاول مرة عن روتين السفر القاسي ومهماته الوظيفية المملة .. انني استشعر لاول مرة طعم الجدة والتوقع والغرابة التي تهبها الرحلات الاولى للمسافرين ..

د. رباح وهل ضمنت ألاّ يتسرب النبأ عن طريق القباطنة الآخرين ؟

ادريس بكل تأكيد .. انهم يعملون معي منذ اثني عشر عاما على ظهر السفينة نفسها .. لقد غدونا عائلة واحدة تسودها الثقة والمحبة .. وما اقوله لهم يضعونه في قلوبهم .. لست رئيسهم ولكني صديقهم ، وهذا سر نجاحي معهم .. لقد اصابتهم الدهشة اول الأمر .. الا انني تمكنت من اقناعهم بسهولة ..

د. رباح وماذا بصدد البعثة الدبلوماسية الجزائرية ؟

ادريس لا تخف عليهم !! انهم جميعا من مجاهدي جبهة التحرير .. ليست هذه هي المرة الاولى التي يلتقون فيها بالموت .. لقد رأوه مراراً وهم يقاتلون ببطولة نادرة من اجل

تحرير ارضهم وشعبهم .. انهم بقدرتهم على مجابهة الموت صنعوا مصير امتهم العظيم .. ستدخل ولا ريب وتراهم بام عينيك ، انهم يقفون هناك دون ان تغادر الأبتسامة شفافهم .. يتحدثون فيما بينهم كما لو ان امرا لم يقع .. وان السفينة التي تقلهم ربما ستستقر بهم بعد قليل في الاعماق .. لقد هزني منظرهم وهم يؤدون صلاة العشاء بشكل جماعي مؤثر .. بينما الآخرون الذين كانوا لفترة قريبة يرقصون بجنون على اصوات الموسيقى الصاخبة .. يتكومون هناك في الزوايا وقد فقدوا كل قدرة على الحركة .. اتدري ؟ انهم هم الذين عرضوا علي المساعدة واعربوا عن استعدادهم للتضحية اذا اقتضى الأمر ..

د. رباح (كأنه يتذكر احداثاً طال عليها الأمد) انهم اصدقاء الجهاد يا كابتن ادريس .. لقد عملت معهم طيلة عشر سنين .. انني اعرفهم جيدا .. تجسيد حي لكل معاني النبل والبطولة في تاريخ الانسان .. لقد كانت تلك ساحتي الحقيقية ثم تحولت الى الجامعة لاجد في اروقتها الجبن والنفاق والصغار والمذلة .. يبدو ان العلم لا يقدر على حماية الاخلاق البشرية من الدمار والتفكك ما لم يكن محصنا بقوة الايمان .. لقد كان هؤلاء المجاهدون مؤمنين حقيقيين ولهذا صعدوا الى القمة وتمكنوا من تحقيق النصر العظيم .. وبدون هذا الايمان النقي .. هذا الايمان العفوي المتدفق .. فلن تستطيع اشد العلوم تقدما واكثر فروع التخصص تعمّقا ان تحمي الانسان .. وما قيمة الحياة الدنيا اذا ضاع الانسان ، ماذا ينفعنا – كما يقول المثل – اذا كسب الانسان العالم كله وخسر نفسه (ينظر الى ساعته) الم يحن الوقت ؟

ادريس (مشيرا الى الصالة) لاعادتهم الى الحياة ثانية ؟

د. رباح كلا ..

ادريس ماذا اذن ؟

د. رباح لتصعيد الرعب درجة أخرى .. ايصاله الى الحد الاقصى ..

ادريس هل تعتقد انهم سيتحملون ذلك ؟ لقد أبقينا لهم شيئا من الأمل ، فماذا لو اتينا عليه ؟

د. رباح لا بد من الاتيان عليه اذا ما اردنا استكمال التجربة ، سأدخل لأرى بنفسي وقع النبأ المفجع عليهم .. فلعل صاحبنا لا يستطيع بعدها ان يواصل العمل؟

ادريس وهل سيستمر ذلك طويلا ؟

د. رباح أبداً .. دقائق فحسب .. لا اريد اكثر من عشر دقائق او عشرين فهذا يكفي ..

ادريس سأذهب لاعلان النبأ .. ما دمنا نتقدم صوب نهاية تجربتك هذه فلا بأس ..

(يغادر المكان ، بينما يدخل دكتور رباح الصالة .. تبقى الشرفة خالية للحظات ثم ما نلبث ان نسمع صوت الكابتن في مكبرات الصوت ينبعث من الصالة).

كابتن ادريس أيها المسافرون ، لقد بذلنا كل جهد ممكن لانقاذ السفينة من المصير المؤلم الذي ستنتهي اليه دون جدوى .. ان الخرق ازداد اتساعا ولم يعد بمقدورنا التصدي لتيار الماء الهائل الذي اخذ يتدفق منه .. ان الطابق الاسفل من السفينة اصبح مغطى بالماء .. وهو الان يرتفع باتجاه الطابق الثاني .. لقد انسحبنا من غرفة القيادة بعد ان اصابها تلف قاتل .. ايها المسافرون اننا نعلمكم بالحقيقة المفجعة .. الحقيقة المرة .. ان السفينة توشك على الغرق ..

(تسمع اصوات صرخات واستغاثة وبكاء عنيف من داخل الصالة ..)

كابتن ادريس قليلاً من ضبط الاعصاب أيها المسافرون فلعل معجزة تحدث فتقلب تقديراتنا رأساً على عقب ..

صوت (من داخل الصالة) لنجر قرعة ايها السادة على زوارق الانقاذ ..

صوت اخر لا داعي للقرعة أبداً .. الاطفال والنساء والشيوخ اولا ..

الصوت الاول الشيوخ شبعوا من الدنيا .. والاطفال لا يحسون .. أما النساء ..

صوت ثالث (يقاطعه) انصتا ان قيادة السفينة تؤكد لنا بان زوارق الانقاذ قد اغرقت كيلا تحدث ارتباكا مميتا بين الركاب ؟

الصوت الاول ولكننا سنغرق .. يا الهي ..

الصوت الثالث نغرق معا .. او ننجو معا ..

الصوت الثاني كان احرى بهم ان يبقوا الزوارق من اجل الاطفال والنساء والشيوخ ..

الصوت الثالث لكن هنالك من ينافسهم .. ألم تسمعه ؟ انه واحد من بين عشرات ..

(يخرج من الصالة شاب متانق يلبس قميصا مشجرا وبنطلونا صارخ اللون وحذاء ذا كعب عال .. يبدو انه مخمور إلى حد كبير .. يقف عند حاجز الشرفة وينظر إلى البحر ..)

الشاب ماذا لو سمحوا لي بواحد من زوارق الانقاذ لكي ينقلني الى حبيبتي .. آه اننا لن نلتقي بعد الآن يا سيمون .. لن نلتقي بعد الآن .. لو كان بمقدوري ان اعبر الى

ساحل فرنسا سباحة لفعلت .. ولكنني مرهق .. مرهق .. وانت بعيدة .. بعيدة .. آه يا سيمون ستنتظرينني طويلا .. وبدلا من ان اتيك لاخذك بالاحضان سأستقر هنالك في الاعماق ، وستنتظرينني طويلا .. واخيرا سيصلك النبأ المفجع .. ان كارديني قد تحطمت وان حبيبك قد مات .. ماذا لو سمحوا لي بواحد من زوارق الانقاذ ؟

(يبكي ويتهاوى عند جدار الشرفة) ..

صوت (من داخل الصالة) أيها الأخوة لماذا تتهاونون هكذا ويخنقكم اليأس ؟ انهضوا واستعدوا للحظة الحاسمة .. اننا يجب ان نتشبث بكل شيء من اجل مغالبة الموت .. ان حطام السفينة نفسه قادر على ان يحملنا الساعات الطوال .. ولعله ياتي خلالها من ينقذنا .. غالبوا يأسكم وانهضوا

صوت ثان إننا ميتون .. ميتون .. واحرى بنا ان نستقبل الموت بهدوء ..

صوت ثالث أريد ان اغمض عيني وأسد اذني وأغيب عن الدنيا قبل ان يغيبني البحر.. ان اشد ما يخيفني رؤية البحر وهو يلتقم بني آدم ..

الصوت الاول لكنكم لستم نساء ولا اطفالا .. انكم رجال وان عليكم ان تعطوهم مثلا ..

الصوت الثاني نعطيهم مثلا ؟ ها .. ها .. ها .. اننا سنموت ايها الرجل .. سنموت ..

الصوت الاول وماذا في ذلك ؟ ألم تكن ستموت في يوم ما ؟ من كان سيضمن حياتك هناك في فرنسا لو وصلت ؟ انك معرض للموت في كل مكان .. انها حتمية لا مفر منها .. وبدلا من ان نهرب منها علينا ان نجابهها بشجاعة..

الصوت الثالث كفاك فلسفة أيها الرجل .. اذهب اذا شئت وجابه الموت بشجاعة ، اما نحن فدعنا نستقبله بالطريقة التي تريحنا .. كفاك .. ارجوك ..

(ما يلبث صوت الكابتن ان يعلومن مكبرات الصوت).

الكابتن ادريس أيها المسافرون .. يا من تحملتم المحنة الرهيبة بشجاعة .. لقد ان لكم ان تتلقوا النبأ العظيم .. لقد تمكنا اخيرا ، وببطولة وشجاعة ملاحي السفينة من سد الثغرة واصلاح العطب في غرفة القيادة .. وها نحن نشغل اجهزة سحب الماء لتفريغ الطابق الاول .. لقد زال الخطر نهائيا .. وبعد قليل ستستأنف سفينتكم المحبوبة كارديني طريقها الى مارسيليا .. تهانينا ..

(تسمع من داخل الصالة صرخات فرح هائلة وعناق وقبلات واصوات متداخلة .. وما تلبث موسيقى الجاز ان تعوي من جديد بعنف جنوني بالغ .. يخرج دكتور رباح

والطالب المغربي وهما يبتسمان ..)

المغربي (بفرح غامر مشوب بارهاق بالغ) لقد كانت تجربة اذن ؟

د. رباح ألم أقل لك انها فرصة ذهبية ؟

المغربي ولكن بعد ان عانت وجوهنا من صفرة الذهب .. لقد امتلات رعبا ايها الدكتور ولم استطع مواصلة مهمتي بعد اعلان البيان الثاني ..

د. رباح ولهذا تداركتك في هذه اللحظة لكي اواصل بنفسي المهمة الصعبة ..

المغربي كنت مطمئناً أشد الاطمئنان ، فأية صعوبة في مهمتك تلك ؟

د. رباح الخوف من عدم مضي التجربة الى غايتها بنجاح .. من عدم استكمال البيانات ... من ضيق الوقت وضرورة المسارعة في اقتناص دقائقه ولحظاته .. لقد قابلت الموت قبل هذا مرارا ، فلم يعد يخيفني ..

المغربي (بالفرح نفسه) لقد جمعنا مقداراً طيباً من البيانات والاحصاءات .. انها باضافتها الى تجاربنا القادمة ، وبعد تحليلها واستنطاقها ستمنحنا المزيد من المعطيات .. انني اشكرك ايها الدكتور رغم كل شيء ، فلقد علمتني ، فضلا عن هذا كله ، شيئا أهم من هذا كله ان منجزات العلم وكشوفه لا تتحقق الا بشيئين الثقة والأمل .. وانني ادرك الان مغزى حديث رسولنا العظيم ((اذا قامت الساعة وفي يد احدكم فسيلة فاستطاع الاّ تقوم يغرسها .. فليغرسها))

د. رباح (متمماً) ((فله بذلك أجر)) ..

المغربي فله بذلك أجر ..

(يتعثر بالشاب المتانق المنطرح عند اسفل الحاجز فيهب هذا قائما كمن يستيقظ من نوم عميق)

الشاب ماذا ؟ ألم نمت بعد ؟ (يصيخ لصوت الموسيقى المنبعث من داخل الصالة ويصرخ) الموسيقى .. الموسيقى ثانية .. ما الذي حدث ايها الرفاق ؟!

المغربي لقد بعثنا من جديد ..

الشاب هل معنى هذا ان السفينة ستواصل رحلتها الى مارسيليا ؟

د. رباح بكل تأكيد ..

الشاب (يقفز الى الصالة وهو يصرخ) سيمون .. لم يبق بيني وبينك سوى ساعات قلائل.. سيمون (يدخل) .

د. رباح **(مشيرا الى الشاب) لم يتعلم اي شيء !!**

المغربي **لا بأس .. فالمهم هو ما تعلمناه نحن ..**

د. رباح **انـه نمط آخر من النـاس ، وهو للأسف ، اكثرهم عددا .. اولئك الذين لا يتعلمـون شيئا من الموت !!**

(تنزل الستارة واصوات الموسيقى العاوية والرقص المجنون وتبادل الانخاب .. تنبعث من الصالة ..)

– ستار –